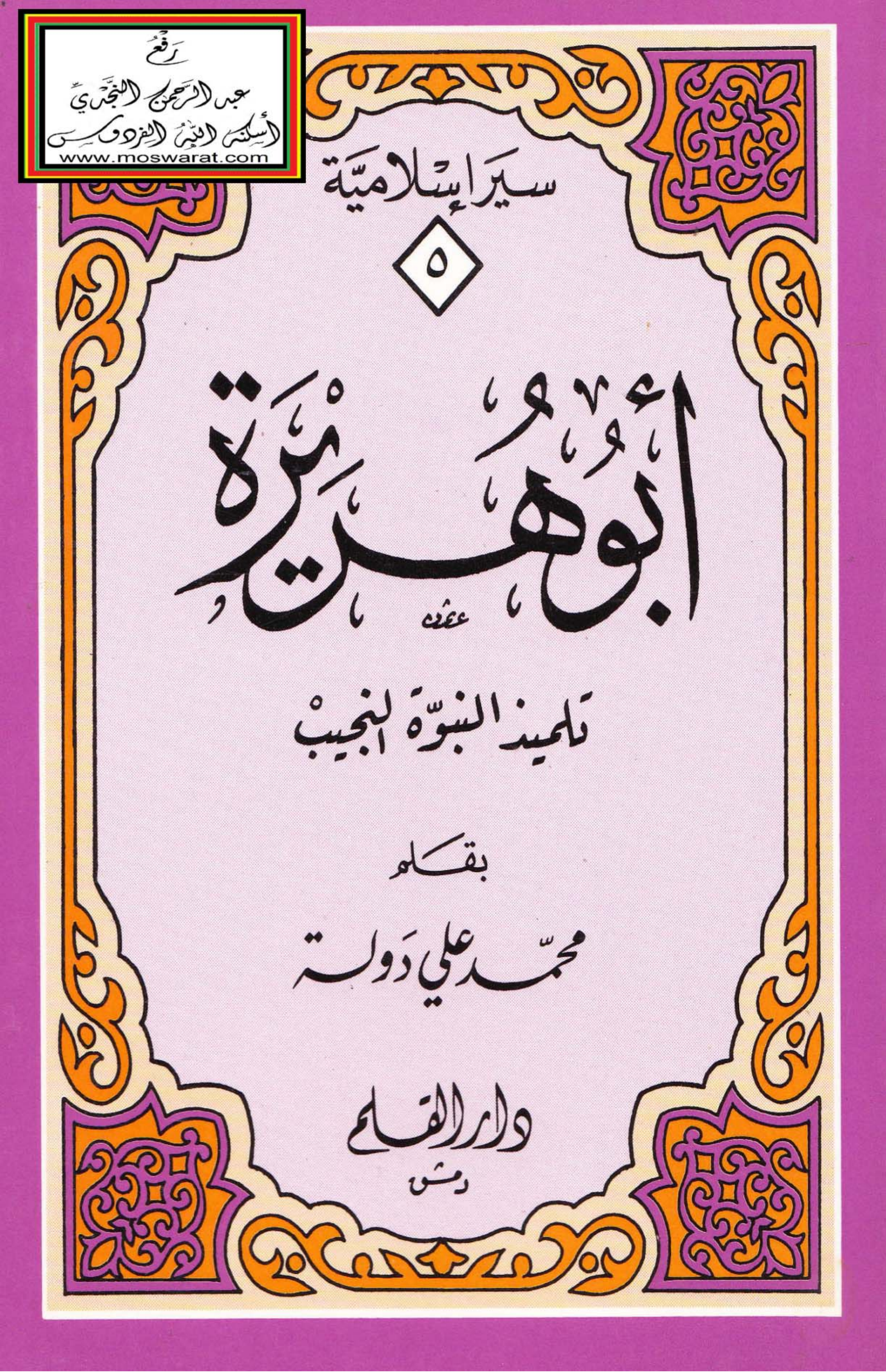
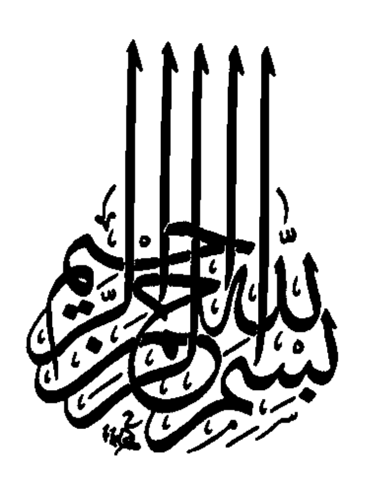


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
سير إسلامية
٥
أبو هريرة
تلميذ النبوّة النجيب
بقلم
محمّد علي دولة
دار القلم
دمشق


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أبو هريرة رضي الله عنه

تلميذ النبوة النجيب


بسم الله الرحمن الرحيم

سير إسلامية

٥

أبو هريرة رضي الله عنه

تلميذ النبوّة النجيب

بقلم

محمّد علي دولة

دار القلم
دمشق

الدار الشاميّة
بيروت

الطبعة الثالثة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الشَابّ الدَّوْسيّ

كان (عبد شمس بن صخر) غلاماً من بين مئات الغلمان في قبيلة (دَوْس) العربية، التي كانت تقطن ناحية من بلاد اليمن. كان لا يأبه له أحد، فهو يتيم فقير، مات أبوه ولمّا يتجاوز الثانيةَ عَشْرَةَ من عمره، وتركه في حضانة أمه. وكان عدد قليل من الناس ممّن يَعرفه باسم (عبد شمس)، فجميع من عرفه لا يناديه إلا بـ (أبي هريرة)، فهو الاسم الذي يناديه به أهلُه وأقاربُه، وهو الاسم الذي غلب عليه.

وكانت نفسه تطيب بهذا الاسم، فهو من ذكريات والده الذي فقده صغيراً وحُرِمَ من عطفه، فقد كان والده كنّاه بهذه الكنية، وذلك حينما رأى وَلَعَه بهرة برّيّة صغيرة، كان يحملها ويداعبها طيلة نهاره وهو يرعى الغنم، ثم يضعها في شجرة إذا جاء الليل، فإذا كان النهار التالي حملها ثانية، وهكذا.

وقد ورث أبو هـريرة فيمـا ورث عن هذا الـوالد ــ رغم قِصَـر المـدة التي عاشهـا معه ــ خفـةَ الروح، وحبَّ الـدعابـة، وجميـل النكتة، فكان رفاقه يحبونه، ويأنسون بـه، ويشوِّقهم حـديثُه؛ لكنَّ يُتْمَـه وفَقْرَه كـانا يهـوِّنان من شـأنه بين أكثـر النـاس، ويحـدّان من طموحه وآماله.

مضى على أبـي هـريـرة سنـوات وهـو يـرعى الغنم، ويُمضي نهارَه أجمعَ متجوِّلاً في السهول والجبـال والأودية، فكنتَ تـراه مرةً في وادٍ عميق، ومرةً أخرى في ذِرْوة جبل شاهق، وثالثةً في سهـلٍ فسيح تحيط به الجبال المرتفعة.

وكان في كثير من الأحيان يخلو بنفسه، ويبتعـد عن لِدَاتِـهِ من الرعاة، فتصفو نفسه، وينشط تفكيـره، ويُجيل النـظر فيما حـوله. كان يسعده النظر في السماء ليلاً، فمنظر القمـر البديـع يملأ قلبـه سروراً وانشراحـاً، ومنظر النجـوم المتلألئـة في الليالي التي يغيب فيها القمر يدهشه ويعجبه.

وكـان أشدّ مـا يعجبه من تلك النجـوم (سُهَيل) الـذي طـالمـا تغنّى بجماله أهل اليمن، وطالما أعجبهم بريق لونه وكثرة خفقانه، حتى لكأنه كما قال الشاعر:

وسُهَيلٌ كوجنة الحِبّ في اللو
نِ وقلبِ المحبّ في الخفقان

أما اختلاف الليل والنهار، وانتظام فصول السنة، وتعاقب الشهور والسنين، فكان له تأثيرٌ آخر في فكره وقلبه، وكان كل ذلك يدعوه إلى التفكر والتأمل، ويهوِّن عليه ما يعتقده قومه في الأصنام، وما يعظِّمونه من شأنها، ويجعله لا يعظِّم سوى إله السماء والأرض، الذي كان معظم العرب يؤمنون به، وبأنه هو الذي خَلَقَ وأبدع، لكنهم يفسدون إيمانَهم باعتقادهم بالأصنام التي زعموا أنها شركاء لله!!.

ونما عود أبي هريرة فأصبح شاباً، بل لقد شبَّ شباباً رائعاً، وآتاه الله فهماً عظيماً وعقلاً كبيراً وفؤاداً ذكياً، فامتاز بذلك على سائر شباب (دَوْس)، فكاد يجد فيما رزقه من هذه المواهب تعويضاً عن قلة ذات يده، وعن يتمه وقلة شأنه في قومه، لكن قومه لم يكونوا يأبهون لهذه المزايا، فهم يحيَوْن حياةً يطغى فيها الجهل على كل شيء؛ لذا لم تُجْدِ هذه المواهب أبا هريرة في قومه، فظلّ خاملَ الذكر، قليلَ الشأن.

هكذا عاش أبو هريرة حياته الأولى في قبيلته دَوْس: راعياً صغيراً للغنم في ظلّ أبٍ يحنو عليه، ثم غلاماً يتيماً مهيضَ

الجنـاح، ثم شابـاً مكتملَ الشبـاب، عـزيـزَ النفس، فقيـراً، لكنـه عفيف في فقـره، كريم في نفسـه، بعيد عن الخنـا، ذكيٌّ ألمعي، نظر في معتقدات قومه فلم يعجبه ما كـانوا عليـه، وإنه ليتـطلّع إلى ما يُشبع قلبه اللهفان، ويهدي عقله الحيران، إنه يتطلّع إلى معتقـدٍ سليم، ودينٍ قويم، فهل إلى ذلك من سبيل؟! إنه ينتظر.



الفتى المسلم

ـ ١ ـ

فُتِنَت قبيلة دَوْس بصنمها (ذي الخَلَصة)، كما فُتنت سائر القبائل العربية بأصنامها، فعبدته من دون الله، وعظّمته، واعتقدت أنه يضرُّ وينفع، ويعطي ويمنع، وأن له تأثيراً في حياتها وفيما يصيبها من خير وشر، وبنتْ له بيتاً فخماً، وأقامت له سادناً يخدمه، ويستقبل من يقصده، وجعل أفراد هذه القبيلة: رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، يَؤُمُّون صنمهم، ويُقدِّمون له الهبات والعطايا، وينذرون له النذور، ويذبحون بين يديه الذبائح. وكانت لهم أيام معينة في كل عام، يحتفلون بها في حضرة (ذي الخَلَصة)، ويقدمون له فيها ضروب التعظيم والتبجيل، ويطوفون حوله، ويتمسّحون به.

أما أبو هريرة فكان يستخفُّ بما يرى من قومه، ويتساءل في نفسه: ما حجرٌ نطيف به؟! كان يذهب معهم إلى صنمهم، لكنه لا يجد في قلبه تلك العاطفة التي يجدها قومه تجاه هذا الصنم

الـذي يَدْعـونه (إلهـاً)، ولا يشاركهم في شيء من طقـوسهم، بـل يقف متفرجاً لاهياً عابثاً، غير عابىء بما يرى ويسمع.

كان يودّ ألّا يحضر أعياد قـومه عنـد صنمهم، لكن أمه كـانت تزجره وتخوّفه من غضب (ذي الخَلَصـة) عليه ونقمتـه منه، وتؤكـد عليه في الحضور، فكـان يستجيب لإلحاح والـدته، لكنـه لم يكن ليؤمنَ بمعتقداتِ قومـه، ولم يكن يجد الجـرأة التي تجعله ينكرهـا عليهم ويستخف بهـا أمامهم، وإنْ هـو سخر منهـا فما هـو المعتقد البديل الذي سينادي به أمام قومه؟!.

ولم يكن (ذو الخَلَصـة) وحده الصنم الـذي استأثـر بـاهتمـام دوس ـ وإن كان قد استأثر بأكثر اهتمـامها ـ بـل شاركـه في ذلك صنمان آخران هما: (ذو الكَفَّين) و (ذو الشَّرَى). فبنت دَوْس لكلٍّ منهما بيتاً، وأقامت لكلٍّ منهمـا سادنـاً، وجعلت لكلٍّ منهمـا أيامـاً تأتي فيها إليه، فتقدِّمُ له واجبات الطاعة والتعظيم.

أما (ذو الكَفَّين) فقد أقامه عمرو بن حممة الدَّوْسي، وترك ابنَه حبيب بن عمـرو يـرعـاه ويقـوم بشـأنـه بعـد أن هلك. وأمـا (ذو الشَّرَى) فقد أقـامت دَوْس له بيتـاً بالسَّـراة وحَمَتْ له أرضـاً كبيرة، كـان بها مـاء جارٍ يهبط من جبـل، فكان النـاس يذهبـون إلى هذا الماء يغتسلون، ثم يمثلون في حضرة (ذي الشَّرَى).

لكن أبا هريرة استخف بهذين الصنمين كما استخف بالصنم الأكبر (ذي الخَلَصة)، وكان يزيده احتقاراً لشأنهما ما كان يسمعه من كبير قومه ومُعَمَّرهم (حبيب بن عمرو بن حممة)؛ الذي كان يتقدم قومه إلى (ذي الكَفَّين)... كان كثيراً ما يسمعه يقول: (إني لأعلم للخلق خالقاً، لكني لا أدري من هو). فكان أبو هريرة يقول في نفسه: إذا لم ندرِ ما الخالق؛ فهل نعبد المخلوق؟!.

ـ ٢ ـ

شاع في دَوْس قصة عجيبة، ردَّدها الناس عن سيد دَوْس وشاعرها الحكيم اللبيب (الطُّفَيل بن عمرو)، ورواها الناس لبعضهم وتندَّروا بها، وخلاصة هذه القصة: أنَّ الطفيل بن عمرو ذهب إلى مكة معتمراً وهناك لقي رجلاً من بني هاشم يقول عن نفسه إنه نبي، وإنه يدعو لتوحيد الله، فآمن له الطفيل، واستأذنه في الرجوع إلى قومه ليدعُوَهم، وطلب منه أن يدعو الله له فيؤيده بشيء يدل على صدقه، فدعا ذلك النبيُّ له، فلما عاد الطفيل إلى بلاده، وأشرف على قومه من عَلٍ، توهَّج رأس سوطه بنور ساطع رآه جمع من قبيلته، حتى إذا وصل إليهم أخبرهم بقصته ودعاهم بدعوته، فلم يصدِّقوه، وما أجابه إلى دعوته غير أبيه وزوجه.

وخفق فؤاد أبي هريرة لهذا النبأ، وفرح به كما لم يفرح بأي

نبـأ سبق، ولولا خوفُهُ من أمـه لرجـع بغنمه إلى رَحْله ضُحى ذلـك اليـوم الذي سمـع فيه بقصـة (الطفيـل) من أحد زمـلائه الـرعيان، ولَسعَى إلى الطفيل ليسمع منه قصتـه. بَيْدَ أنـه آثر أن يمضي بقيـة يـومه، ويعود لرحله كعـادته، وبعـدها يـذهب إلى الطفيـل فيسمر عنده، ويسمع قصته.

وبعد غروب الشمس لم يكد أبو هريرة يجلس إلى أمه قليلاً، حتى أخبـرها أنـه ذاهب إلى الطُّفَيـل بن عمرو يسمـع منه قصتـه، فقالت له أمه: اذهب إليه ولكن احذر أبا هريرة أن تصبوَ كما صبـأ الطُّفَيْل، وإيَّاك أن تغيِّرَ دينك وتفعل كما فعل ذلك الرجل الذي كنَّا نظن فيه العقل والفطانة!!.

استأذن أبو هـريرة على الـطُّفَيل بن عمـرو، فَأَذِن لـه، ورحَّبَ به، وبشَّ في وجهه، وأجلسه على فراشٍ وثير، وقال أبـو هريـرة: جئتك يا عم أسـألك عَمَّـا جرى لـك في مكة مـع الهاشمي الـذي يقول إنه نبـي، فقال له الـطفيل: نعم يـا ابن أخي، والله إنه لنبـيٌّ حقاً وصدقاً، وقد آمنت له، واتَّبعتُهُ، وإنـه ليدعـو إلى حق، ولكن من أنتَ يا ابن أخي؟ فقال أبو هريرة: أنا (عبـد شمس بن صخر)، فقال الطُّفيل: أنت الذي يَدْعونك بأبـي هـريرة؟ فقـال: نعم. قال الطفيل: قـد سمعتُ عن عقلك وبصرك، وبلغني أنـك لا ترى في

(ذي الخَلَصة) شيئاً، فهلمَّ يـا ابن أخي إلى دين الله الذي بَعث بـه خاتم أنبيائه.

وقال أبو هـريرة: أريـد أولاً أن أسمع منـك قصة دخـولك في هذا الدين فأنا مشتاق لسماعها.

قال الطُّفَيل: كان من قصتي أنني قدمت مكة معتمـراً، فمشى إليّ رجالٌ من قريش، فقالوا: يا طُفَيل، إنك قدمت بـلادنا، وهـذا الـرجل الـذي بين أظهرنـا قد أعضـل بنا[1]، وقـد فَرَّق جمـاعتنا، وشَتَّتَ أمرنا، وإنمـا قولـه كالسحـر، يفرِّق بين الـرجل وبين أبيـه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجـل وزوجته، وإنـا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلِّمَنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئاً.

ووالله يا ابنَ أخي ما زالوا بـي حتى أجمعتُ أنْ لا أسمعَ منـه شيئـاً ولا أكلِّمَه، حتى لقـد حشوت أذني كُـرْسُفاً[2]، فَـرَقـاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه.

فغـدوت إلى المسجد، فـإذا رسول الله ﷺ قـائم يصلي عنـد الكعبة، فقمت منه قـريباً، فـأبـى الله إلا أن يسمعني بعض قولـه،

---

(١) أعضل بنا: أي ضاقت بنا الحِيَل في أمره.

(٢) الكرسف: القطن.

فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثُكْلَ أمي! والله إني لرجلٌ لبيبٌ شاعرٌ، ما يخفَى عليّ الحَسَنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإنْ كان الذي يأتي به حسناً قبلتُهُ، وإنْ كان قبيحاً تركتُهُ.

ومكثت ـ يا ابن أخي ـ حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد، إنَّ قومك قد قالوا كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددتُ أذني بكُرْسُفٍ لئلا أسمع قولك، ثم أبىٰ الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك.

وعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق. ثم قلت له: يا نبيَّ الله، إني امرؤٌ مُطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آية تكون عوناً لي عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له آية».

وخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بالثَّنِيَّة[1]، وقع نورٌ بين

---

(١) يشير إلى ثنية كانت تشرف على منازل دَوْس.

عينيّ مثلُ المصباح، فقلت: (اللّهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مُثْلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم). وتحوَّل النور فوقع في رأس سوطي، وجعل الحاضر[1] يتراءَوْن ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلَّق، وأنا أهبط من الثنية إليهم، حتى جئتُهم، فأصبحتُ فيهم.

فلما نَزَلت أتاني أبي، فقلت: إليكَ عني يا أبت، فلستُ منك ولستَ مني، قال: ولمَ يا بُنَيّ؟ فقلت: قد أسلمت وتابعتُ دينَ محمدٍ ﷺ، فقال أبي: أيْ بُنَيّ، فديني دينك، فقلت: اذهب فاغتسل وطهِّر ثيابك، ثم تعال أعلِّمك ما علمت. ثم أتتني صاحبتي، فكلّمتُها بنحو ما كلمت أبي، فأسلمتْ. ثم دعوت دَوْساً فأبطأوا علي[2].

كان الطفيل يتكلم وأبو هريرة يُصغي إليه، ويلتقط كلماته بعقله وقلبه. وبعد أن انتهى من قصته بَرِق وجه أبي هريرة سروراً بما سمع، وقال له: يا أبا عمرو، أسمعني بعض ما تلاه عليك هذا النبي من الكلام المنزل عليه، فقال له الطفيل: نعم.

---

(١) الحاضر: القوم النازلون على الماء.

(٢) عن السيرة النبوية لابن هشام بتصرف يسير.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾.

ولم يملك أبو هريرة نفسه، فصاح: ما أجمل هذا الكلامَ وأعظمَه!!.

واستأنف الطفيل القراءة:

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

وصاح أبو هريرة ثانيةً: حَسْبك أبا عمرو، فوالله ما سمعنا بمثل هذا الكلام، وما بلغنا عن أحد من العرب أنه قال مثلَه أو قريباً منه، إنه ليس كلامَ بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ وأنا على دينك أبا عمرو، آمنتُ بما آمنتَ به.

وَفَرح الطفيل بإسلام أبي هريرة وقال له: الحمد لله الذي هداك للإسلام واستنقذك من النار.

وتوجَّه أبو هريرة إلى الطُّفَيل قائلًا: أبا عمر، هل لك أن تحدثني عن رسول الله ودعوتِه وسيرتِه في قومه، فقال الطُّفَيل: نعم يا ابن أخي.

لقد أكرم الله نبيه بالنبوة منذ عشر سنوات، وكان أول ما أوحى به إليه قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾.

ولقد اختار الله لنبيه بيتاً من أوسط بيوت قريش: بني هاشم، ولقد مات أبوه وهو في بطن أمه، لكنَّ الله هَيَّأَ له جَدُّه عبد المطلب سيد مكة فكفله، ثم كفله من بعده عمُّه أبو طالب إلى أن استقل بنفسه. وحين نَزَل عليه وحيُ الله دعا لدينه أوّلَ ما دعا سراً، فآمنَ له أربعون ما بين رجلٍ وامرأة وكبير وصغير، ثم أُمِر فصدع بدعوته، فسخرت منه قريش، ثم أنكرت عليه، ثم واجهته وأصحابَه بالأذى والعدوان والتنكيل الشديد، حتى اضطر بعض أصحابه للهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم.

لقد آذت قريشٌ رسولَ الله ﷺ، وما يدعوهم إلَّا إلى خير، فهو يدعوهم (إلى توحيد الله، وخلع ما يعبدونه من الحجارة والأوثان، ويأمرهم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَة الرحم، وحسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء. وينهاهم عن الفواحش، وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. ويأمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يقيموا الصلاة، وينفقوا من أموالهم في وجوه الخير).

ولقد تركتُ رسولَ الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على وفود العرب، وطلبت منه أن يهاجر إلى (دَوْس) فأبى عليَّ، وطلب مني

أن أعـود إلىٰ قومي، فـأدعوهم إلى الله، حتى إذا سمعت أنـه قـد ظهر على قومه لحقتُ به.

أما رسول الله ــ يا أبا هريرة ــ فلم تَـرَ عيني أجمل ولا أكمـل منه، مُنَوَّر الـوجه، تـامّ الخِلْقة، جميـل الطلعـة، صادق اللهجـة، دائم البِشْـر، ليِّن الجـانب، يحبـه كـل من رآه، ويثق بــه ولـو لم يَدِنْ بدينه.

وهنا توجَّه أبو هريرة ثانيةً إلى الطفيل وقـال له: إني أشهـد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولسوف أدعو إلى هذه الشهادة في دَوْس، لعل الله أن ينقذها من شركهـا وجاهليتهـا، فالحمـد لله الـذي أخـذ بقلبـي وسمعي وبصــري إلى الإسـلام، وجــزاك الله أبا عمرو عني خير الجزاء.

ـ ٣ ـ

ودَّعَ أبو هريرة عهدَ الجاهلية، ودخَلَ في دين الله، وكان رابـعَ قومِه إسلاماً، فقـد سبقه الـطُّفَيل وأبـوه وزوجه. وأخـذ يتردَّد على الـطُّفَيْـل يتعلَّم منـه مـا تعلَّم من القـرآن الكـريم من النبـيِّ عليــه السلام. وسرعان ما حفظ كـل شيء كان عنـد صاحبـه، فقد كـان لبيباً فطناً. وعلّمه الطفيل الصلاة، فجعل يؤديها أداءً حسناً.

ثمَّ اتَّجه إلى أفراد قبيلتِه يدعوهم للدخول في الإسلام، والاعتقاد بوحدانية الله، وينهاهم عن ضلال الشِّرك. وعَلِمَت دَوْس أنَّ أبا هريرة قد فارق دينها وأنه قد تابع الطُّفَيل على دينه، فجعلوا يَعْذُلُونه وينكرون عليه صنيعَه، وكان أشدهم في ذلك أمّه، التي ألَحّتْ عليه أن يدع هذا الدين المحدَث، ويعود لدين آبائه وأجداده، فأجابها: يا أمّاه إنَّ الدين الذي اتبعتُه هو الدينُ الحق، وهو دين اللهِ الذي لا يقبل غيره. وعادت أمه تزجره مرةً بعد مرةٍ، لكنه حَسَمَ أمره معها، وأفهمها أنه لن يغيِّر دينَه، ولن يعدِلَ به شيئاً في الدنيا.

وبذَلَ هو والطُّفَيْل جهداً كبيراً في دعاءِ قومهما إلى الإسلام، فما استجابَ لهما أحد، فقد كانت الوثنية قوية في هذه القبيلة، وكانت الفواحشُ قد انتشرت في أفرادها فَصَرَفَتْهم عن التَّطلُّعِ للسلوكِ الكريم والسيرةِ الحسنة. وضاق الطُّفَيْل ذَرْعاً بهذه النتيجةِ المحزنةِ، فقد كان يرجو ـ وهو الرجل الشريف المطاع في قومه ـ أن يستجيب له قومه، إلاَّ أن رجاءه قد خاب، وها هو ذا قد مضى عليه ما يزيد على سنة وهو يدعو إلى الله، فلم يستجب له إلا أبوه وزوجه وأبو هريرة، فماذا يعمل؟! وكيف يتصرف؟!.

وفي يومٍ من الأيام فاجأ الطُّفيل أبا هريرة بهذا الخبر، فقال

له: إني مرتحِلٌ إلى رسول الله ﷺ أشكو إليه أمر (دَوْس)، واهتزَّ فؤاد أبي هريرة لهذا النبأ، وقال للطفيل: هلاَّ تصحبني معك، فأرىٰ رسول الله ﷺ وأبايعه على الإسلام، وأجابه الطفيل: يا أبا هريرة إنَّ قريشاً قد نصبت العِداء الشديد لرسول الله، وإنها قد عادت كلَّ من يواليه، فأنا أخاف عليك في ذهابك إلى مكة، أما أنا فالقوم يرعَوْن حُرمتي لصلتي القديمة بهم، ولمكانتي في دَوْس.

وفي مكة المكرمة وقف الطفيل أمام رسول الله ﷺ يقول له: يا رسول الله، إنَّ دَوْساً قد استعصت!!.

ويرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء، ويظن الطفيل أنه سيدعو على قومه، فيفرح لذلك، فقلبه قد مُلىء غيظاً منهم، لكنَّ النبيَّ الرحيم يفاجئه بهذا الدعاء: «اللهم اهدِ دوساً وائت بهم». ثم يأمره أن يعود لقومه، ويدعُوَهم من جديد ويتلطّفَ في دعوتهم.

وعاد الطفيل وبشَّر أبا هريرة بدعوة رسول الله لقومه، واتجه الرجلان إلىٰ قومهما يدعوانهم من جديد، ولانت النفوس، ورقَّت القلوب، وأُشربت الإيمان، وشَرَعَ أفراد دَوْس يدخلون في دين الله.

ـ ٤ ـ

أسلم أبو هريرة وعمره ثلاثٌ وعشرون سنة، ومضى على إسلامه بضع سنوات، واكتملت فتوّتُه، وبلغ أشدّه، ووسَّع الله عليه في الرزق، فاشترىٰ غلاماً لخدمته وخدمة أمّه، لكنّ أمراً واحداً أقضّ مضجعه وأتعب نفسه، هو بُعده عن رسول الله ﷺ، فقد كان يحمل في جوانحه قلباً فَيّاضاً بالمحبة لهذا النبي الكريم، وكان يتمنّى أن تكتحل عيناه برؤيته، وأن يعيش إلى جواره.

وزاد من شوقه للهجرة إلى النبي عليه السلام تلك الأخبارُ السارّة التي علمها من الطفيل عن رسول الله ﷺ؛ فقد أخبره الطفيل أنه بلغه أن النبي عليه السلام هاجر من مكة إلى يثرب هو وأصحابه، وأنَّ أهل يثرب قد آمنوا بدينه، وأنهم قد أصبحوا وإخوانُهم المهاجرون جندَ الإسلام المدافعين عنه بسيوفهم ورماحهم.

ثم زاده سروراً أخبار أخرىٰ جاءت ببشرى انتصار المسلمين في بدر على قريش. ثم تَتَالَتْ الأخبار السارّة سنة بعد أخرى، وأبو هريرة يزداد يوماً بعد يوم شوقاً إلى رسول الله ﷺ.

وأخيراً بلغهم نبأُ الأحزاب التي تحزَّبت وأحاطت بالمدينة،

وعلموا أن الله قد ردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وأنَّ النبيَّ وأصحابَه قد نجحوا نجاحاً عظيماً في غزوة الأحزاب، وأنَّ قوّتهم قد زادت، وأن يقينهم قد أصبح كالجبال الراسيات.

لقد بلغ شوق أبي هريرة للهجرة مبلغه، ولكنّ أمرين كانا يقفان في طريقه وهما: أمه، وطلب الطفيل الدائم منه أن يتريَّث ليكثر عدد المسلمين في دَوْس، فيهاجروا جميعاً إلى النبي ﷺ.

واستطاع أبو هريرة أن يُقنع أمه بالتحول معه إلى يثرب، وبذل في سبيل ذلك جهداً عظيماً، ثم تحول إلى الطفيل، وجعل يلحّ عليه بالتعجيل في شأن هذه الهجرة، ويقول له: الحمد لله، لقد انتشر الإسلام في دَوْس، وآمن عشرات الناس، فلنهاجر بمن آمن إلى رسول الله، فننصره ونسعد بالعيش قريباً منه، ونصحبه.

ووافق الطفيل أخيراً على طلب أبي هريرة، وفاجأه بهذا الخبر السارّ الذي اهتزت له جوانحُه، قال له: استعد يا أبا هريرة، فقد أزفت ساعة الهجرة.

***

المـُـــؤمن المهَـــاجر

ـ ١ ـ

في فجـر يـوم من الأيـام انـطلق ركب المهــاجـرين من دَوْس باتجاه الحجـاز. كان يتقـدّمهم زعيمهم (الطُّفَيـل بن عمرو) وكـان يسير إلى جواره أبو هريرة. وكم كان سروره بالغاً بهذه الهجرة، إنَّ سـروره لا يكاد يعـادلـه فيـه أحـد من أولئـك المهـاجـرين إلى الله ورسـوله. وحَـدا الحُدَاة لـلإبـل، وأوَّبت معهم الجبـال والسهـول والوديان، وانسابت الأصوات الندية إلىٰ آذان الإبل، فطربت لها، واشتدّت في سيرها.

وآلـــم دَوْساً أشـد الألم أنْ ينأى هـذا العـدد من أفـرادهـا عن بـلادهم، ويهاجـروا إلى أرض لا يعـرفـونهـا، وطغىٰ الحـزن على معظم أفراد هذه القبيلة، فما من بيت إلا فقد فرداً من أفـراده، لقد كان المهاجرون يزيدون على الثمانين بيتاً، وقال قائل منهم: (والله إنَّ دينـاً قد جعـل هؤلاء يهجرون الأهـل والـوطن لَعَجب). وكـان

لهـذه الكلمة تـأثير كبيـر في نفوس الكثيـرين، فجعلوا يفكرون في أمر هذا الـدين الذي بلغ تـأثيره في نفـوس إخوانهم هـذا الملبغ. وفتحت هذه الكلمة أمام عقولهم المنافذ لتفكير طويلٍ وعميق.

ومضى أبو هريرة في ركب المهاجرين، لم يعبأ بـوعثاء السفـر التي أصـابته، ولا حَفِـل بذلـك التعب الشديـد الذي أضنـاه، إنـه سعيد كل السعـادة، على الرغم ممـا كانت تبـديـه أمـه من ضجر وتذمُّر طيلة الطريق، وعلى الرغم من لـومها الشـديد لـه على هذه الهجرة الشاقّة المضنية.

كـان كلما مضى على سفـره يوم إثـر يوم يشعـر بسـرور أكبـر وسعادة أتم، فقد كان يستعجل ساعة اللقاء برسول الله الذي أحبـه عن بُعد حباً عظيماً، ولقد انتظر هذه الساعة سنين عديدة، وها هي ذي قد دَنَت، وخفق قلب أبـي هريـرة، وأخذ منـه الحنين والحب كلَّ مأخذ.

مضى على المهـاجـرين أكثـر من عشـرة أيـام وهم يُغِـذُّون السيـر . . . لقد دخلوا في بـلاد الحجـاز، وهـا هم أولاء الآن في مشـارف يثرب، وإنهم الآن ليتـراءَوْن جَبَـل أحـد عن بُعـد، ولكن ــ واحسرتاه ــ فالشمس قد أفلت، والنور قد تلاشى، وغاب عنهم الجبل الحبيب، ولم يعودوا يرونه شامخاً يسـد الأفق أمامهم؛ على

الـــرغم من ضـوء القمـــر الـذي عَمَّ الكـــون، ولم يفتّ هـــذا في عـزيمتهم، بل إنهـا الآن على أشـدّهـا، وإنَّ الشـوق قـد بلغ بهم جميعـاً مبلغـه، هـا هم أولاء قـد وصلوا المـــدينـة الحبيبـــة، وإن أصـواتهم لترتفـع بحمد الله على تـوفيقه وعـونـه أنْ بلَّغهم المنىٰ، وآواهم إلى مدينة النبـي ﷺ.

— ٢ —

استقبلت مـدينة النبـي ﷺ فـوجاً جـديداً من المهـاجرين ولم يشعر بمقدمهم إلا قلة قليلة من أهل المدينـة، فالمـدينة خـالية من الـرجال، ومعـظم رجالهـا غائبـون عنها، إنهم في خيبـر يفتتحـون حصـونها، ويؤدِّبـون اليهود الـذين خططوا لغـزو المدينـة ومبـاغتـة أهلهـا، لكن النبـي ﷺ اكتشف أمـرهم، فغـزاهم في عقـر دارهم قبـل أن يغزوه، ومـا شعروا بـه إلا وهو يحـاصرهم في حصـونهم، ويطلب منهم النزول على حكمه.

وحطَّ المهـاجـرون أثقـالهم عن رواحلهم وافتـرشـوا الأرض، وغلبهم النـوم على عيونهم لكثـرة ما أصـابهم من التعب، وأخلدوا إلى نومٍ عميق، وما أيقظهم إلا مؤذِّن الفجر يدعو النـاس للصلاة، وكم كان وقع هذا الأذان طيباً في أسماعهم، فقد سمعوه أولَ مرة،

هـا هم يتوضـأون ثم يتجهون إلى مسجـد النبـي ﷺ، وكلهم أمـل أنّ يسعدوا برؤيته ويسلموا عليه، ويبايعوه على الإسلام.

وسبق أبـو هريـرة الجميع إلى المسجـد النبوي، فشـوقُـه إلى النبـي عليه السلام كان عارماً، ودخل المسجد، ففوجىء بـأنَّ عدد المصلِّين قليل، وأن معظمهم طاعنون في السنّ أو مـرضى، وسألَ عن النبـي ﷺ، فقيل له: إنه في خيبر يفتتحها. وحزن أبـو هريـرة أن فاتَتْه رؤيـة النبـي في تلك الساعـة التي انتظرهـا طويـلًا، وأوىٰ بقيـة رجال دَوْس إلى المسجـد وأعلمهم أبـو هـريـرة بخبـره عليـه السـلام؛ فغشيتهم سحـابـةٌ من الحـزن وهم الـذين كـانـوا يمنّـون أنفسهم الأماني، في التبرّك برؤية وجهه الكريم، وفي مبايعته على الإسلام في ذلك اليوم.

وأقيمت الصلاة، وتقدَّم رجلٌ يؤمُّ المسلمين، فسأل أبو هريـرة رجـلاً إلى جَنْبه: من هـذا الرجـل الذي تقـدّم يؤم النـاس؟ فقيـل لـه: هذا سبـاع بن عرفـطة الغفـاري، وقـد استخلفـه النبـي عليـه السلام أميراً على المدينة مـدة غيابـه. وكبَّر الإمـام وكبَّر المصلون خلفه، وقرأ الفاتحة، ثم ابتدأ يتلـو سورة مريم وأبـو هريـرة يصغي لآياتها التي طَـرَقتْ سمعَه لأول مـرة. وقام الإمـام للركعة الثـانية، وقرأ بعد الفاتحة:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾.

ومضى الإمام يتلو السورة حتى أتىٰ عليها كلِّها، لكن أبا هريرة وقف عند مطلع السورة، وجعل يردد في صلاته:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾.

وجعل يقول في نفسه: ويل لك يا أبا فلان، ويل لك يا أبا فلان، وكان يقصد رجلاً من دَوْس، كان له مكيالان: مكيال يكيل به لنفسه، ومكيال يبخس به الناس.

استشعر أبو هريرة معانيَ الآيات التي سمعها، وتفاعلت بها نفسه، ووجد لها وقعاً جميلاً في قلبه، وانتهت الصلاة وتقدَّم إلى سباع بن عرفطة، فسلَّم عليه هو والطُّفيل، وأخبره بخبرهم، فرحَّب بهم، وأثنى عليهم. ثم انصرف هو والطفيل وبقية رجال دوس إلى رحالهم، وتداولوا أمرهم، أيبقَوْن في المدينة حتى يعودَ إليها رسولُ الله ﷺ؟ أم يذهبون وراءه إلى خيبر؟ وأدلى أبو هريرة

برأيه، وقال على مسمع من قومه: (أما أنا فلا أسمع به ينزل مكاناً أبداً إلا جئتُه). وشجعت كلمة أبي هريرة أصحابه على متابعة السفر، واتّعدوا أن ينطلقوا صباح غدٍ.

وفي النهار أدّى الدَّوْسيون صلاةَ الظهر في مسجد النبي ﷺ خلف الأمير سباع بن عرفطة، وتقدم إليه أبو هريرة، وقال له: إنا قد عزمنا على أن نلحق بالنبي ﷺ في خيبر، فسرَّه ذلك النبأ، وزوَّدهم ببعض الزاد، ودعا لهم بخير.

ـ ٣ ـ

وفي يوم غدٍ انطلق أبو هريرة ومهاجرة دَوْس، بعد صلاة الفجر باتجاه خيبر، وترك أمه في المدينة المنورة، واصطحب معه غلامه الذي كان اشتراه في دَوْس ليخدمه.

وطلعت الشمس وعمَّ نورها الكون، واشتدت حرارتها، ووجد المهاجرون مسَّ حرارتها شديداً، لكنهم تحمّلوا ذلك ولم يعبأوا به، فهم يرومون أمراً تهون دونه الصعاب، وما إنْ دنا وقت الظهيرة حتى شعروا بتعب شديد، فنزلوا عن إبلهم، وأدَّوْا فريضة الظهر ثم أخلدوا إلى القيلولة، حتى إذا استراحت أجسامُهم قليلاً، استأنفوا سفرهم حتى مضى جزءٌ من الليل، عند ذلك توقَّفوا عن المسير، وقضَوْا بقية ليلتهم نائمين في سفح جبل صغير.

واستيقظ أبو هريرة فجر تلك الليلة فأذَّن للفجر، ثم أيقظ أصحابه، فأدَّوْا الصلاة، ثم تابعوا مسيرهم ولم يتوقفوا حتى أعياهم التعبُ الشديد، فأخلدوا إلى قيلولة قصيرة ثم تابعوا سفرهم، وهم يأملون أن يكونوا في خيبر صباح الغد، وهناك ينالون أقصى أمانيهم وأسعد آمالهم.

مضىٰ على المهاجرين ما يزيد على خمسة عشر يوماً وهم في سفر متواصل، فمنذ أن انطلقوا من بلاد دَوْس وهم في مسير دائم، ولم يتوقفوا فيه إلا لماماً، وإلا ذلك اليوم الذي قضَوْه في المدينة المنورة. لقد بلغ بهم التعب مبلغه، وأحسَّ الجميع بالإعياء والمشقة، ولولا الأماني الحلوة التي كانت تمدهم بطاقة عجيبة من الصبر والاحتمال؛ لما استطاعوا بذلَ هذا الجهد وتحمُّلَ تلك المشقة.

وبينا هم سائرون وهم على تلك الحال من التعب، التفت أبو هريرة عن يمينه ثم عن يساره يطلب غلامه، فلم يجده، وسأل عنه الركب فلم يجد عندهم خبراً عنه، وأيقن أنه قد ضلَّ عن الركب أو أنه قد هرب منه، فتأخر عن إخوانه ليبحث عنه، لكنه ـ وبعد تعبٍ شديد ـ لم يجده، فأغذَّ السير يريد اللحاق بقومه وهو على حالةٍ شديدة من التعب، وجعل يردد بصوت عالٍ:

يــا لــيــلة مــن طــولــهــا وعــنــائــهــا
عــلىٰ أنــهــا مــن دارة الــكــفــر نــجَّــتِ

وأدرك أبـو هريـرة قومـه، فأخبـرهم بخبـره، فـواسَـوْه وطيَّبـوا خـاطره، فـردَّ عليهم: وماذا عليَّ إنْ فقـدتُ غلامي؟! فـلأَنْ أكون فقدتُ كلَّ شيء وفزتُ برؤية النبـي ﷺ فأنا الرابـح. وكانت كلمـة رائعـة من أبـي هريـرة أراحت نفـوس أولئـك المتعبيـن، وشغلتهم عن مشقاتهم، وأمدتهم بطاقة جديدة من الصبر والاحتمال.

ـ ٤ ـ

طلع فجـر اليوم الثـالث على المهـاجـرين إلى الله ورسـولـه، وتـابعوا سيـرهم بعد صـلاة الفجر، وبـزغ قـرن الشمس، وانتشـر النـور، وأطلَّت عليهم خيبـر بحصـونهـا العـاليـة، وخفقت القلوب واضطرمت الأشواق، وحدا حادٍ نديُّ الصوت، فـأغذت الإبـل في سيرها حتى أتعبت راكبيها، وما هي إلا سـاعة حتى وصلوا معسكـر المسلمين، وأُخبـر بهم رسـول الله ﷺ من قِبَـلِ حـرسـه، وكـان عليه السلام في مركز قيادته، بينما كان الجيش المسلم يعالج فتـحَ الحصن الأخير من خيبر.

وكان أسبقَ القوم إليه أبو هريرة، فتقدّم منه ومـدَّ يده مصـافحاً

ودموعُ الفرح تنهمر من عينيه، وحيَّاه قائلاً: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، وردَّ النبيُّ عليه التحية، ثم قال له: «من أنت؟»، فأجاب: أنا عبد شمس بن صخر الدَّوْسي أبو هريرة، فقال النبي عليه السلام: «بل أنت أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدَّوْسي»، وتبسَّم أبو هريرة وقال: نعم أنا عبد الرحمن بن صخر، ثم قال: جئتُك يا رسول الله في قومي لأبايعك على الإسلام؛ ولأكونَ قريباً منك أسعد بصحبتك. وبايعه النبي عليه السلام، ورحَّب به، ودعا له. ثم قدم الطفيل فسلّم على النبي ﷺ واعتنقه وقبّله من جبهته، ثم تقدَّم بقية المهاجرين فسلَّموا جميعُهم على النبي عليه الصلاة والسلام وبايعوه على الإسلام، وكان الطفيل يسمِّيهم له واحداً واحداً.

فرح النبي عليه الصلاة والسلام بهؤلاء المهاجرين، وفرحوا هم فرحاً شديداً بلُقْياهم له ﷺ، فقد أدركوا أغلى أمانيهم، واكتحلت عيونهم بالنظر إليه، فبكَوْا فرحاً، وجاشَتْ عواطفهم؛ لا سيما وقد رأوا من هيبة النبي ﷺ وجلاله وجماله ما فاق كثيراً ما كانوا يتصورونه.

وكان أشدَّهم سروراً أبو هريرة، فقد جلس إلىٰ جانب النبي ﷺ، وأخذ يرمُقُه بنظراتِ الحب والإكبار مرةً بعد أخرى، وبينا هو على هذه الحال والنبي عليه الصلاة والسلام يعرض

للمهاجرين الإسلام؛ إذا بغلامه يظهر فجأة أمامه وهو مُقْبل عليـه، ثم فـوجىء بالنبـي عليـه الصلاة والسـلام يلتفت إليـه ويقـول لـه: «هذا غلامك أبا هريرة».

ودُهش أبو هريرة دهشةً عظيمة، فقد أدهشه أولاً ظهورُ غلامـه فجأة بعد الذي اعتقد من هربه، ثم لقد زاده دهشةً قولُ النبـي ﷺ له: «هذا غلامك»، وتساءل في نفسه سريعاً: ما الذي أعلم النبـيَّ عليـه الصلاة والسـلام أنه غـلامي وأني كنت قد ضللتُـه؟ وأجـاب أبو هريـرة سريعـاً: نعم يا رسـول الله، وأنا أشهـد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، وأُشهدك أنه حرٌّ لوجه الله عز وجل.

وسَرَّ رسولَ الله جوابُ أبـي هريـرة ورأىٰ فيه فتىً ذكيـاً فَطِنـاً. وأقبل عليه الصلاة والسلام على الطفيل يسائله عن قومـه، فأخبـره أنَّ الله قد استجاب دعاءَه، فأسلم منهم ما يزيـد على ثمانين بيتـاً، لكنه أبدىٰ حزنه لأن عدداً كبيراً من قومه لا يـزالون على شـركهم، وأنهم قـد عصَـوْا وأبَـوْا أن يُسلمـوا، ثم قـال لـه: يـا رسـول الله ادعُ عليهم.

ورفع النبـي عليه الصلاة والسلام يديه وبسطهما يدعو، وخفق قلب أبـي هريرة، وقال في نفسه: (هلكت دَوْس)، وظنَّ أن النبـيَّ عليه الصلاة والسلام سيدعو عليها؛ بعـد الذي سمعـه من سيِّدهـا

الطفيل عن بقاء معظم أهلها على كفرهم وفسوقهم، لكنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام فاجأ الطفيل ثانيةً وفاجأ أبا هريرة والدَّوْسيين بهذا الدعاء الكريم:

«اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم».

وفرح أبو هريرة وسائرُ الدَّوْسيين بهذه الدعوة المباركة، وأيقنوا أن قبيلتهم لا بد أن تفيءَ إلى الإيمان والطاعة عن قريب، ولا بد أنَّ الإسلام سيغزو ديارها، وأنَّ الإيمانَ سيغمر قلوبها.

ـ ٥ ـ

كان قدومُ أبي هريرة على النبي ﷺ بعد أن أتمَّ فتح سائر الحصون، ولم يَبقَ إلا حصن واحد، ولم يشهد أبو هريرة إلا آخر معركة من معارك هذا الحصن، ولقد شغل بالَه في تلك المعرَكة كلمةٌ سمعها من النبي عليه الصلاة والسلام، يخبر بها عن رجل كان في صفوف المسلمين بأنه من أهل النار، والذي أدهش أبا هريرة أنَّ هذا الرجل قد أبلى في القتال أشدَّ البلاء، حتى أصابته جراحاتٌ بليغة.

وسمع أبو هريرة بعضَ الناس يتحدثون في أمره، ويتعجَّبُون من صنيعه وما سمعوه من النبي ﷺ بحقه، وقال أبو هريرة لمن حوله: الله ورسوله أعلم بشأنه.

وسقط الرجل البطل، وآلمته جراحاته، فلم يصبر عليها فأخرج سهماً من كِنانته ونحَرَ به نفسه، ورأى الناس ما فعل، فركض رجلٌ إلى النبي ﷺ يخبره، وقال له: (يا رسول الله، قد صدَّق اللهُ حديثَك)، انتحر فلان فقتل نفسه. وأمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بلالاً فقال له: قم فنادِ في الناس: «لا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ، إنَّ الله يؤيِّدُ الدين بالرجل الفاجر». وسمع الناسُ كلمةَ النبي ﷺ وسمعها أبو هريرة فتمتم قائلاً: صدق رسول الله، صدق رسول الله.

وفي خيبر وبعد انتهاء المعارك شهد أبو هريرة عودة مهاجري الحبشة بعد غياب سنين طويلة، ورأىٰ فرحَ النبي ﷺ الشديد بعودتهم، وانطبعت في مخيِّلَته صورةُ النبي ﷺ وقد قام فالتزم جعفرَ بنَ أبي طالب، وقبّله بين عينيه وقال: «ما أدري بأيِّهما أنا أُسرّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»؟. ولقد أحب جعفراً من ذلك اليوم، ثم نمت هذه المحبة في قلبه بعد الرجوع للمدينة، وظلت تلك المحبة قوية في قلبه إلى أن لقيَ وجه ربه.

وانتهت معارك خيبر، وفُتِحت المدينة الحصينة، وأذلَّ اللهُ اليهود وغنم المسلمون غنائم كبيرة، وأُعطي أبو هريرة وأصحابُه الدَّوْسيّون جزءاً من هذه الغنائم. ورجع أبو هريرة في جيش

المسلمين إلى المدينة المنورة، وكان أهمَّ ما عَلِق بذهنه من مشاهد خيبر التي رآها، مشهدُ الشاة المسمومة التي قُدِّمت لرسول الله ﷺ، فأكل من ذراعها، وأراد بعضُ أصحابه الأكلَ فقال لهم: «أَمْسِكوا فإنها مسمومة». وأدهشه كذلك الحوارُ الذي دار بين النبي ﷺ واليهودية التي قَدَّمت له هذه الشاة، وقولُه لها: «ما كانَ الله ليسلِّطَكِ عليّ». وزاد هذا المشهد من تصديق أبي هريرة للنبي عليه الصلاة والسلام وزاد من حبِّه له.

وفي الطريق جعل أبو هريرة يسأل إخوانه عما فاته من قصص فتح خيبر فحدّثوه عن بعضها، ولقد طَرِبَ لقصة علي رضي الله عنه حينما أرسل النبي ﷺ وراءه أثناء الفتح، ليقودَ جيش المسلمين إلى حصنٍ قد استعصى عليهم فتحُه، فقيل للنبي عليه الصلاة والسلام: إنَّ علياً أرمد، فقال: «عليَّ به»، فجاء فتفل النبي عليه الصلاة والسلام في عينيه، فبرأ لساعته، وحمل الراية، وأجرى الله على يديه نصراً مبيناً.

وسُرَّ كذلك لمصرع اليهودي (مَرْحَب) ــ الذي تباهى ببطولته أمام المسلمين وتحدّاهم، وأنشد الشعر يفخر بنفسه، ولقي منه الصحابةُ بعض العَنَت ــ سُرَّ لمصرع هذا اليهودي على يد الفتى البطل الشجاع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولم يروِ سماعُ هذه الأحداث غليلَ أبـي هريـرة، فكان يسـأل مَنْ حـولـه في مسيـرهـم راجعين عن مـزيـد من الأحـداث، وكـان يحـرص على أن يكون قـريباً من النبـي ﷺ، يتبـارك بالنـظر إليه، ويستمع إلى كلماته التي كانت تقع في قلبه قبل سمعه.

ولقد حضر أبو هريرة في جملة كبيرة من الصحابة وليمةَ النبـي عليه الصلاة والسلام على السيدة (صفيـة بنت حُيَـيّ بن أخطب)؛ التي أصابها السَّبْـي يوم خيبر، فضمَّها النبـي عليه الصلاة والسلام إلى بيت النبوة، جَبْراً لخاطرها، وإكراماً لها، فقد كانت شريفةً في قـومهـا. وأكـل أبـو هـريـرة من وليمـة النبـي ﷺ، وكـانت وليمـة متواضعة قوامها: التمرُ والأَقِطُ والسمن.

ولم ينس صاحبنا ثلاثةَ أمـور وعتها ذاكـرته اليقـظة، في جملة أمور كثيرة، أثناء رجوع جيش المسلمين:

● ففي (وادي القـرى) تقدّم عبـد يقال لـه مِدْعَم ـ كـان أحدُ بني الضبّـاب قد أهـداه للنبـي ﷺ ـ تقدم هـذا العبـد يحطّ رحـل النبـي ﷺ، وبينمـا هـو يحمـل الـرحـل إذا بسهم ـ لا يُـدرى مَنْ رماه ـ أصاب هـذا العبد، فمـات لحينه، فجعـل الناس يقـولون: هنيئاً لـه الشهادة، هنيئاً له الشهادة، عنـدها قـال النبـي ﷺ: «كلا ـ والـذي نفسي بيـده ـ إنَّ الشَّمْلة التي أصـابهـا يـومَ خيبـر من

المغـانم، لم تصبها المقـاسم، لَتشتعل عليـه ناراً». وفعلتْ كلمـةُ النبـي عليه الصلاة والسـلام فعلَها في النفـوس، وحمل رجـل من المسلمين (شـراكاً)[1] وجـاء بـه إلى النبـي ﷺ فقـال: هـذا شيء كنت أصبتُه، فقال ﷺ: «شراك من نار».

● وفي إحـــدى الليـالي أدرك المسلمين الكَـرىٰ[2]، فـأمــر النبـي ﷺ بالتوقف عن المسير والخلود إلى الراحـة، وقال لبـلال: «اكلأ لنا الليـل»[3]، فصلَّى بلال مـا قُدِّر لـه، ونام رسـولُ الله ﷺ وأصحـابُه، فلمـا تقارب الفجـر استنـد بـلال إلى راحلتـه مـواجـه الفجــر، فغلَبَتْـه عينـاه وهـــو مستنـــدٌ إلى راحلتـــه، فلم يستيقظ رســـولُ الله ﷺ ولا بـلال ولا أحـــد من أصحـابـــه حتى ضـربتهم الشمس، فكان رسولُ الله ﷺ أوّلَهم استيقاظاً، فَفَزِعَ عليه الصـلاة والسلام وقال: «أيْ بلال»، فأجابه: أخذ بنفسي الذي أخـذ بنفسك ـ بأبـي أنت وأمي يا رسـول الله ـ. وأمر النبـيُّ بـالمسير، فسـاروا يسيراً، ثم نزل وتوضأ، وتوضأ المسلمون، وأَمَرَ بـلالاً فأذّن وصلَّوْا ركعتين سُنَّـة الفجر، ثم أقـام الصلاة وصلىٰ لهم الصبـح، وسمـع أبو هريرة يومَها رسولَ الله ﷺ يقول بعد أن سلّم:

---

(١) الشراك: سير النعل ويكون على ظهر القدم.

(٢) الكَرى: النعاس.

(٣) الكِلاءة: الحفظ والحراسة. والمراد: انتظار بزوغ الفجر.

«من نسي صلاةً فليصلِّها إذا ذكرها، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾».

● وأشرف المسلمون وهم في مسيرهم على وادٍ، فجعلوا يقولون: (الله أكبر، لا إله إلا الله)، ويرفعون بها أصواتهم، وتوجّه إليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «أرْبِعوا على أنفسكم، إنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً مجيباً، وهو معكم». وكان أبو هريرة يسير خلف رسول الله ﷺ، ويسير إلى جانبه (أبو موسى الأشعري)، وأبو موسى يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، والتفت النبي إلىٰ أبي موسى وقال له: «يا عبد الله بن قيس»، وقال أبو موسى: لبيك يا رسول الله، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

«ألا أدلُّك على كلمةٍ من كنزٍ من كنوز الجنة»؟ فقال أبو موسى: بلى يا رسول الله ـ فداك أبي وأمي ـ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله». ووعت ذاكرةُ أبي هريرة يومَها هذه الكلمة الطيبة، فجعلَ يُردِّدُها على لسانه، ثم كانت ذِكْراً دائماً له في جملة أذكاره، وإلى أنْ لقي ربه، بعد الذي سمعه من رسول الله ﷺ في فضلها.

***

في صحبة النبيّ ﷺ

ـ ١ ـ

عاد أبو هريرة إلى المدينة المنورة، وأوى إلى مسجدها فاتَّخذ لنفسه مكاناً في الصُّفَّة، حيث كان هناك جماعة من فقراء الصحابة يجلسون وينامون. وابتدأت في حياة أبي هريرة مرحلةُ الصحبة، التي كانت أجملَ وأكرمَ مراحل حياته التي طالت.

كان ذلك في أوائل السنة السابعة للهجرة. ولم يكن أبو هريرة يومَها يتجاوز الثلاثين من عمره، كان فتىً متوقِّدَ الذهن، قويَّ الذاكرة، متعطِّشاً للعلم، فهو يريد أن يقطف ثمراته من فم النبي ﷺ. لم يكن يَشْغَلُه شيء، وليس في حياته ما يصرفه عن هذا الأمر، فهو شاب عَزَب، وقد وطَّن نفسه على أن يكتفي بأقل القليل من الزاد، بل على أن يتحمَّل الجوع والعُرْيَ والفقرَ، لينصرف انصرافاً تاماً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وجعل أمامه هدفاً واحداً هو: طلب العلم والتفقه في دين الله.

وقد نجح في التزام هذا الهدف أيَّما نجاح، فلقد عاش سنيَّ صحبته الأربع وهو يسعىٰ وراء هذا الهدف لا يحيد عنه، ولقد تحمَّل في سبيله العَنَتَ الشديد وصبر ـ رضي الله عنه ـ حتى ظفر، وكان من خِيرة طلاب العلم في مدرسة النبي المعلِّم صلوات الله وسلامه عليه.

ولم يمضِ على سُكْناه المدينة كبير وقت؛ حتى قدم كبير دَوْس ومُعَمَّرها (حبيب بن عمرو بن حممة الدَّوْسي)، ومعه خمسة وسبعون رجلاً من قومه، فأسلم وأسلموا جميعاً، وانضاف هذا العدد للعدد السابق من دَوْس، وسكنوا ناحيةً من مدينة النبي ﷺ، وفرح بهم أبو هريرة فرحاً شديداً، وأيقنَ أن هدايتهم كانت ببركة دعاء النبي ﷺ لهم يوم خيبر.

وأقبل أبو هريرة على رسول الله ﷺ وجعل لا يفارقه، وأخذ يُصغي إليه بسمعه وقلبه، وصار يسأله عن أمور الدين التي لا يعلمها، فيجيبه النبي عليه الصلاة والسلام، فيحفظ ما يُقال له في وقت قصير. كان أول ما أتقنه الصلاة، فقد صحح بعض الشيء من صلاته التي كان يصلِّيها، وجعل يحاكي النبي عليه الصلاة والسلام في صلاته. وأقبل إقبالاً رائعاً على حفظ القرآن الكريم، فجعل يطلب آياتِهِ وسوَرَه من النبيِّ عليه الصلاة والسلام فيُحَفِّظه إياها. ويطلبها من كبار الصحابة، فيُقْرِئونه ويعلِّمُونه.

وتعرَّف أبو هريرة في مدة وجيزة على عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ، فعرف أسماءَهم وأقدارهم عند رسول الله، وبلاءهم في الإسلام، وصار يجلس إلى خادم النبي الأول أنس بن مالك رضي الله عنه ـ وكان شاباً صغيراً ذكياً ـ فيسأله عن أخبار النبي عليه الصلاة والسلام التي مضت من بداية هجرته، فكان أنس يحدثه أحاديث مستفيضة، ويجلس هو يستمع بسرور بالغ.

وكان يرى كثرة تردُّدِ عبد الله بن مسعود على بيوت النبي ﷺ وخدمته وتردُّدِ أمه كذلك، فظنَّ أنه وأمَّه خادمان للنبي عليه الصلاة والسلام، ثمَّ علم أنَّ ذلك كان حفاوة من رسول الله ﷺ بابن مسعود، فهو رجلٌ صالح نجيب، فتمنّى أن يحل من رسول الله بالمحل الذي حلَّ منه ابن مسعود وأنس بن مالك وغيرهما من صحب النبي المقربين.

ـ ٢ ـ

أحبَّ أبو هريرة النبيَّ ﷺ حباً عظيماً، حتى صار أحبَّ إليه من الناس جميعاً ومن نفسه التي بين جَنْبيه، وصار يشعر بالسعادة تغمره كلما كان بين يديه عليه الصلاة والسلام، وحين كان يفارقه كان يشعر بوحشة، وصرح للنبي بذلك فقال له: (يا رسول الله،

إني إذا رأيتــك طـابت نفسي وقـرَّت عيني). وعلم النبـي عليــه الصلاة والسلام صدقَ أبـي هريرة، فقابله على محبتـه حباً وعـطفاً وبشاشةَ وجه.

وتجاوزت محبة أبـي هـريرة للنبـي إلى محبتـه لأصحابـه وآل بيته، فأحبهم جميعاً لحبِّ النبـي لهم، بل وأحب الأطفـالَ الصغارَ الـذين كـان يـرى رسـولَ الله يحبهم ويـداعبهم، فـأحبَّ الحسنَ والحسينَ ابنَيْ عليّ وأحبَّ عبد الله بن عباس وغيرهم.

وأسعد أبا هريرة ما لَقِيَه من عـطف النبـي ﷺ عليه، وأسعـده أن نـال أمنيته العـظمى وهي عيشُهُ إلى جـوار النبـي عليـه الصـلاة والسلام وتعلُّمُه منـه. لكنّ أمراً واحـداً كان يحـزنه حـزناً شـديداً، ويعكِّـر عليه صفـوَ سعادتـه، ذلك الأمـر هو بقـاء أمه على الشِّـرك ورفضهـا أن تؤمن بالله ورسـوله، فقـد دعـاهـا إلى الإسـلام مـراراً فكانت ترفض الاستجابة، ولقـد قصَّ عليها بعـد رجوعـه من خيبر ما رآه وما سمعه من دلائل صدق نبوة النبـي عليـه الصلاة والسـلام ــ لا سيما قصة الشاة المسمومـة ــ لكنها بقيت بعيـدة عن الهدى، متمسكـة بـدينهـا المـوروث، وقـالت لابنهـا: لا أزال أعبـد (ذا الخَلَصة) ما حَيِيت.

ولم يكفّ أبـو هريـرة عن دعائهـا إلى الله، ولم ييـأس منهـا،

فأخذ يناشدها كلَّ يوم أن تؤمن بالله ورسوله، واغتاظت منه في يومٍ من الأيام، فأسمعته كلاماً في النبي عليه الصلاة والسلام، وحزن أبو هريرة للذي بَدَر من أمه أشدّ الحزن، وحمل من ذلك هَمَّاً عظيماً، وخشيَ على والدته أن يصيبها بأسٌ من الله، وخشيَ على نفسه أن يكون سبباً فيما نال النبي عليه الصلاة والسلام من أذى والدته، وفكَّر في أمره، فلم يجد سوىٰ رسول الله ﷺ مسعِفاً في هذا الأمر العسير.

أسرع أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ، ودخل عليه مسجده ودموعُهُ تبلِّل وجهه ولحيته، وسلَّم وجلس، وبادره النبي عليه الصلاة والسلام: «مَالَك أبا هريرة؟»، فأجاب بصوت حزين:

(يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلىٰ الإسلام فكانت تأبى عليَّ، وإني دعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادعُ الله أن يهديَ أمَّ أبي هريرة).

وأجابه النبي الكريم الرحيم لطلبه. فرفع يديه فوراً وقال:

«اللهم اهدِ أمَّ أبي هريرة».

وفرح صاحبنا بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام، واستبْشَر بها خيراً، وخرج بعد وقت قصير من عند النبي يريد أن يبشِّر أمَّه بتلك الدعوة المباركة... وسرعان ما لبى الله دعوةَ نبيه، وسرعان

ما أكرم الله عبدَه الصالح أبا هـريرة في أمـه، فقد جلست هي بعـد ذهاب ابنها تفكر فيما كان يدعوها إليه وتستعرض كلماته، وأنارَ اللهُ قلبَهـا وهداهـا إلى الحق، وانطلق لسـانها يقـول: أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله.

لقد تبدّل كفرُها إيماناً، وجفاؤها ليناً، وقسوتهـا رقة، وكـرهُها حبـاً ومودةً، وسـارعت تغتسل وتـودِّع رجْسَ الجـاهليـة، وتستقبـل الإيمانَ وهي طاهرة الظاهر والباطن.

وما إنْ وَصَل أبو هريرة حتى سمع خضخضـة الماء، وسمعت هي صـوتَ قدميـه، فقـالت لـه: مكـانَـك يـا أبـا هـريـرة. ووقف أبو هريرة، وسارعت أمـه فأتمَّت اغتسـالها ولبست ثـوبها، وفتحت البـاب قبـل أن تضـع خمـارهـا على رأسهـا، وفـاجـأتـه بهـذه الكلمة الطيبة:

يـا أبا هـريـرة، أشهـد أن لا إلـه إلا الله، وأشهـد أن محمـداً عبده ورسوله.

وطـرب أبو هـريرة لسمـاع هذه الشهـادة العظيمـة، وطار بهـا فـرحاً، ولم يقف مـع أمه لحـظة يسائلهـا كيف أسلمت، بـل عـاد سريعاً إلى رسول الله ﷺ يبشِّره بإسلام أمه. ودخل عليه هذه المرة وهـو يَبْكي من الفـرح، فسلَّم وقـال: يـا رسـول الله، أبْشِـرْ فقــد استجاب الله دعوتَك وهدَىٰ أمَّ أبـي هريرة، وبَـرَقَ وجهُ رسـول الله

سروراً، وحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه وقال خيراً.

وانتهز أبو هريرة هذه الفرصة فقال للنبي عليه الصلاة والسلام:

يا رسول الله، ادعُ الله أن يحبّبَني وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحبّبَهم إلينا.

فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم حَبِّبْ عُبيدَك هذا وأمَّه إلى عبادك المؤمنين، وحبِّب إليهم المؤمنين».

وفرح أبو هريرة ثانيةً بهذا الدعاء المبارك، وكان يوماً مشهوداً في حياته، كان أسعدَ أيامه بعد يوم لقائه للنبي في خيبر، فقد انزاح عن قلبه همٌّ عظيمٌ بإسلام أمه، وحصل على أمر عظيم وهو دعاء النبي له بأن يُحِبَّ هو وأمُّه المؤمنين ويحبّوهما. وعاش أبو هريرة بعد ذلك اليوم المشهود زماناً وهو يشهد تحقُّقَ دعاء النبي له، وكان دائماً التحدّث بذلك، كان يقول: ما خلق الله من مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني.

ـ ٣ ـ

شعر أبو هريرة بعد إسلام أمه أنّ همّاً عظيماً قد انجاب عن فؤاده، وأدرك أنه لم يبقَ أمامه شيء يَعوقه عن تفريغ قلبه وسمعه

وبصره لرسول الله ﷺ؛ ليفهم الإسلام فهماً تاماً، وليدرك ما فاته من العلم.

ووضع أبو هريرة نصب عينيه أمرين:

أوّلُهما حفظ وفهم كلِّ ما يتنزل على رسول الله ﷺ من الوحي من جديد، وكلِّ ما يتحدث به النبيُّ إلى أصحابه ويخطبهم ويعظهم به، وعدم التفريط بشيء من ذلك ولو بكلمة.

ثانيهما: حفظ ما فاته من القرآن الكريم مما نزل قبل هجرته؛ وكذلك ما تحدّث به النبي عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه من قبل، واستيعاب مجريات سيرته السابقة وأيامه ومشاهده.

ولزم أبو هريرة رسول الله ﷺ من أجل هذين الهدفين لزوماً تاماً، فكان يكون معه عامة نهاره وجزءاً من ليله، كان يصلِّي خلفه ويُنصت إلى قراءته. كان يجلس معه ويرهف سمعه إليه، ويستجمع كاملَ وعيِه. كان يغدو ويروح معه، يزور الصحابة، ويعود المرضى، يَحضُر الجنائز معه. كان يذهب في حاجاته ويدعو له الناس، ويمشي بأوامره إليهم.

غدا أبو هريرة كأنه سِجِلّ دقيق ليوميات رسول الله ﷺ وأعانه على ذلك همَّةٌ عالية، وحافظةٌ عجيبة، وفهم ثاقب، وتعطُّش شديد للعلم، وخلوُّ بال، وقناعة تامة، وزهد في عرض الدنيا، وقبل هذا

كلّه حبٌّ كبير لرسول الله ﷺ، وعاطفةٌ جيَّاشة تجاهه، وإيمان قوي.

وحلَّ أبو هريرة في قلب النبي عليه الصلاة والسلام بالمحل الكريم، وعطف عليه عطفاً شديداً، وسرّه منه رغبتُه الشديدة في طلب العلم والازدياد منه، فقرَّبه منه، وفسح له المجال لمجالسته وملازمته، بل كان كثيراً ما يدعوه إلى بيته فيطعمه ويكرمه، وجعل يقرئه القرآن، ويوصي أصحابه بأن يُقرئوه، وأخذ يخصُّه ببعض الوصايا، والأخبار، والنبوءات.

وكان عليه الصلاة والسلام يتفقّده إذا غاب ـ وقلَّ ما كان يغيب ـ ويرسل وراءه من يبحث عنه... دخل النبي ﷺ يوماً مسجده، فلم ير أبا هريرة يأتي إليه ويسلِّم عليه كما كانت عادته، ونظر هنا وهناك في المسجد، فلم يجده، والتفت إلى مَنْ كان بالمسجد قائلاً: «من أحسَّ الفتى الدَّوْسي»؟ فلم يُجبه أحد، وقال ثانية وثالثة: «من أحسَّ الفتى الدَّوْسي»؟ وقال مَنْ هناك: لم نره يا رسول الله. وكان رجل يصلي، فلما قضى صلاته، اقترب من النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: يا رسول الله، هو ذاك يوعك في جانب المسجد. وحزن النبي عليه الصلاة والسلام لمرض أبي هريرة وأقبل عليه، فسلَّم عليه، وتبسَّم له، وسأله عَمَّا

به، فشكىٰ له المرض، فوضع يدَه الكريمة على موضع الألم ودعا له، فقام من ساعته وقد بَرِىءَ مما به.

ـ ٤ ـ

أقبل أبو هريرة على النبيٍّ عليه الصلاة والسلام بسمعه وقلبه، وجعل يحفظ عنه كلَّ ما كان يسمعه منه. كان لفرط حبه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام يكثر النظر في وجهه ويتجرأ على ذلك، في حين كان عدد من الصحابة يتهيَّبون النظر الدائم في وجهه الكريم، كان يقول:

(ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه).

وكان لفرط حبه للنبي عليه السلام يتجرأ أن يسأله عن أمور كان الصحابة يتهيَّبون سؤاله عنها. قال له يوماً: (يا رسول الله، إني إذا رأيتُك طابت نفسي، وقَرَّتْ عيني، فأنبئني عن كل شيء، فقال له: «كل شيء خُلق من ماء». وقال أبو هريرة: يا رسول الله أنبئني عن أمر إذا أخذتُ به دخلتُ الجنة، فقال له: «أَفْشِ السلام، وأَطعم الطعام، وصِلِ الأرحام، وقُمْ بالليل والناسُ نيام، ثم ادخل الجنة بسلام».

وفي يـوم من الأيـام وبينـا عـدد من أصحـاب رسـول الله ﷺ جلوسٌ عنـده، قال أبـو هريـرة: (يا رسـول الله، من أسعدُ النـاس بشفاعتك يوم القيامة)؟.

وسُرَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بسؤال أبـي هريرة وأثنى عليه خيراً وقال له:

«لقد ظننت ألاّ يسألَني عن هذا الحديث أحدٌ أَوْلى منك، لمـا رأيتُ من حرصك على الحديث».

وبعد هذا الثناء العطر قال له:

«إنَّ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيـامة من قـال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه».

وفرح الصحابة يومهـا بسؤال أبـي هريـرة، وأثنَوْا عليـه خيراً، وكان أشدَّهم ثنـاءً عليه أبيٌّ بن كعب، الـذي أوصاه بعـد انصراف النبـي ﷺ أن يُتحفهم بـالكثيـر من مثـل هـذه الأسئلة. ولم يكن أبو هريرة بحاجة إلى مثل هذه التوصية، فقد كان حبُّه للعلم كحب الرجل للماء البارد على العطش، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسـلام أحبَّ إليـه من كل شيء في الـوجود، لـذا دأب على عادتـه وازداد علماً على علم.

وشعر أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا كَبَّـر في الصلاة سكت هُنَيْهـة قبل أن يقـرأ الفاتحـة، فقـال لـه، يـا رسـول الله، ما تقـول؟ فأجابه: «أقول:

«اللهم بـاعِدْ بيني وبين خـطايـاي كمـا بـاعـدت بين المشـرق والمغـرب، اللهم نقِّني من خطايـاي كمـا يُنقَّى الثـوبُ الأبيضُ من الدَّنَس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد».

وسـأل أبو هـريـرة رسـول الله ﷺ عن كـل شـيء، سـألـه عن الصلاة والصيام والزكاة والحج، سأله عن الإيمان وحقيقتـه، سألـه عن الجنة والنار، سأله عن الملأ الأعلى، وسأله عن حياته ودعوتـه في مكة المكرمـة وما جـرى له، وعن هجـرته، وعن سـائر أيـامه، وكـان يلقى الجوابَ الشـافي، وكان يجـد من النبـي عليه الصـلاة والسلام البشاشـة والسرور والارتيـاح لأسئلته. وسعـد هو بمـا كان يحصِّلُه من العلم، وسعد إخوانه الصحابة الكرام بذلك.

وأراد عليه الصلاة والسلام يوماً أن يمتحن أبا هريرة، فبينـا هو يقسم غنيمة، قال له: «ألا تسألني لمن هذه الغنائم»؟ فأجابه:

(أسألك أن تعلّمني مما علّمك الله).

وعنـدها أمـره النبـي عليه الصـلاة والسـلام أن ينـزع نَمِـرة[1]

(١) النمرة: بُرْدة من الصوف تَلْبَسُها الأعراب.

كـانت على ظهره، فنـزعها وأخـذها النبـيُّ عليـه الصلاة والسـلام فبسطها بينه وبين أبـي هريرة، ثم حدَّثه طويـلاً، حتى إذا استوعب حديثه، قال له: «اجمعها فَصُرَّها إليك»، ففعل أبو هريرة، وشعر بعد قليل بسرٍّ عملِ النبـيِّ عليه الصلاة والسلام، شعر بسرٍّ ذلـك مساءَ يومه، فقد جلس يستذكـر بعد العشـاء الآخرة أحـاديث النبـي عليه الصـلاة والسلام التي حَـدَّثه بهـا حين بسط النَّمِرة، فـإذا به كـأنـه يقرأها من كتابٍ أمامه، وإذا به لا يُسقِط منهـا حرفـاً واحداً، وفـرح بذلك أشدَّ الفرح، وحَمِد الله على ذلك أتمَّ الحمد.

وما هي إلا أيام قليلة حتى أكرمه الله بـدعوة مبـاركة من النبـي عليه الصلاة والسلام ليثبِّت اللهُ حفظه، وتحققت لـه هذه الـدعوة، وغـدا يحفظ ولا ينسى، ويعي كـل شيء يُلقى إليـه ولا يُضيِّـع منه شيئاً.

فقد دخل النبـي عليه الصلاة والسلام المسجد ضحى يوم من الأيـام، فوجـد أبا هـريرة وزيـدَ بن ثابت ورجـلاً آخر، وكـان زيـد قد انصرف إلى الصلاة هو والرجل الآخر، وأبو هريرة يقرأ القرآن، حتى إذا انتهى زيـدٌ وصاحبـه من صـلاتهمـا جعـلا يـدعُـوَان الله، وتـوقّف زيدٌ وصـاحبُه عن الـدعاء حين أقبـل عليهمـا النبـي عليـه الصلاة والسلام، وأمرهما النبـي بمتابعة الدعاء، وجعل يؤمِّن على

دعائهما، حتى إذا انتهيا من الدعاء، أمر أبا هريرة بأن يدعو لنفسه فدعا أبو هريرة وقال:

(اللهم إني أسألك ما سألك صاحباي، وأسألك علماً لا يُنسى).

وقال عليه الصلاة والسلام: «آمين، آمين».

وفطن زيد وصاحبُه لهذا الدعاء الخطير الشأن؛ فقالا: ونحن نسألك علماً لا ينُسى، وأجابهما النبي عليه الصلاة والسلام بتلطُّف:

«سبقكم بها الغلام الدَّوْسي، سبقكم بها الغلام الدَّوْسي».

هكذا شاء اللهُ العليم الحكيم أن يأتيَ هذا الشابُّ الخاملَ الذكر، الذي كان يرعى الغنم في دَوْس، يأتي من أرض اليمن إلى ظِئْر الإسلام، ليقوم بأمرٍ هامّ عظيم، وهو استيعابُ أكبر قدر من حديث رسول الله ﷺ، واختزانُه في ذاكرة ممتازة، ثمّ بثُّه في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، ونقلُه لأجيال التابعين، ثم تداوله في أجيال هذه الأمة جيلاً بعد جيل. ذلك عطاءٌ من ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً؛ وذلك فضلٌ من الله يختصُّ به من يشاء، وهو العليم الحكيم.

كان أبو هريرة قبل دعاء النبي له وقبل حادثة بسط النمرة، يشعر بأنه يَنسى بعضَ كلمات النبي عليه الصلاة والسلام، وشكا له ذلك وقال: (يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً فأنساه). فأصبح بعد ذلك قويَّ الحفظ لا ينسى حرفاً من كلامه عليه الصلاة والسلام، وكان هذا الأمر ـ بالإضافة إلى كثرة ملازمة أبي هريرة للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وبالإضافة إلى ذاكرته الجيدة ورغبته العارمة في العلم ـ كان هذا كلُّه سبَب تفوُّقِه ونبوغِه، وسبقِه الصحابةَ جميعاً في حفظ الحديث وروايته.

ـ ٥ ـ

لم تصرف ملازمةُ أبي هريرة للنبي عليه الصلاة والسلام أبا هريرة عن بِرِّه بأمه، فكان يزورها صباحَ مساء، وكان يحمل لها جزءاً من الزاد الذي يحصل عليه، فتأكله وتقنع به، وأخذ أبو هريرة يعلِّم أمَّه ما كان يتعلَّمه من النبي عليه الصلاة والسلام، وصارت هي تصلي مع النساء في مسجد النبي، وتسمع خطبه ومواعظه.

وجاءها يوماً بتمرتين، وقال لها: إنَّ رسول الله ﷺ أعطانيهما لك، فكُليهما وسمِّي عليهما الله، فستُجزيانِكِ عامّةَ نهارك. ثم قال لها: والله يا أمّاه، ما يمنعني من العمل والاكتساب وإطعامِكِ

الحَسَن إلاّ حبِّي لملازمة رسول الله والتفقُّهِ عليه، فاصبري على ما تعانيه، فإن مع العسْر يسراً.

وجاءَها يوماً، فقال لها: يا أمَّاه لقد جئتك بخيرٍ عميم، لقد جاء جماعة من الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، ذهب أهلُ الدُّثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهم.

فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «أَوَلَيس قد جعل الله لكم ما تَصدّقون به!؟ إنَّ بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة».

فأكثري يا أمّاه من هذه الأمور تلحقي بأولئك الأغنياء وتنالي أجراً كأجرهم.

وقال لها يوماً: يا أماه: حَدَّثنا رسولُ الله ﷺ أمسِ فقال لنا:

«أرأيتم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدكم يغتسل منه كلَّ يوم خمس مرات، هل يبقى من دَرَنه شيء»؟ فقلنا: لا يبقى من دَرَنه شيء، فقال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا». فانظري يا أماه إلى فضل هذه الصلوات، وإلى فضل الله علينا حين شرع لنا ما يطهرنا به من آثامنا على الدوام.

وحَدَّثنا رسول الله ﷺ فقال: «قالت النار: ربِّ أكل بعضي بعضاً، فأْذَنْ لي أن أتنفَّس، فأذن لها بنفَسين: نَفَس في الشتاء ونفس في الصيف»؛ ثم قال لنا: «فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نَفَس جهنم، وما وجدتم من حرّ فمن نَفَس جهنم». فأكثري يا أمَّاه من التعوّذ من نار جهنم. وسَلي اللهَ السلامة والعفو والعافية.

كان أبو هريرة لا ينقطع عن بِرٍّ أمه وتحديثها بحديث النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت هي تتلقى منه الأحاديث بسرور تام، وتدعو له وتقول دائماً: (اللهم إني راضية عن ولدي أبي هريرة فارضَ عنه)، فكان أبو هريرة يشكرها على ذلك ويثني عليها خيراً.

— ٦ —

أوىٰ أبو هريرة إلى مسجد رسول الله ﷺ، فاتخذه بيته وسكنه، ومغداه ومراحه ومكان نومه؛ واتخذ لنفسه موضعاً في الصُّفَّة، وصار من أهلها، بل لم يلبث قليلاً حتى أصبح عريفَ أهل الصفَّة والرجلَ البارز فيهم، وأعظمَهم مكانة عند رسول الله ﷺ. وفي الصفّة أمضى أبو هريرة فترة صحبته للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد بقي فيها ملازماً لها، لا يعدل بها

منزلاً، إلى أن انتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى.

والصفَّة موضع مظلَّلٌ من المسجد النبوي، وكان أهلُها فقراءَ الصحابة ممن لم يكن لهم قبائل ولا منازل في المدينة، فكانوا ينامون فيها على عهد رسول الله ﷺ ويكونون فيها عامة أيامهم، فكان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه بالليل، فيفرِّقهم على أصحابه، فيتعشَّوْن عندهم، وتتعشى طائفة منهم عند رسول الله ﷺ، حتى جاءهم الله بالغنى.

وكان النبي يستأثر دائماً بأبي هريرة، فإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم معه، فيوزِّعها عليهم، وإذا جاءته هدية أكل منها وأرسل أبا هريرة وراءهم فجاؤوا وأكلوا، أو يعطيه نصيبَهم فيقسمه هو بينهم.

ولم يكن أهل الصفَّة بالقوم الكسالىٰ الذين يقعدون عن الكسب والعمل، لكنهم شغلوا بالجهاد والتعلم، وضاقت موارد المدينة عن عملٍ لهم، وكان مجتمع المدينة ــ عموماً ــ مجتمعاً فقيراً، فتحمّل هؤلاء الجوع والعري، وصبروا صبراً جميلاً، وآثروا اللَّهَ ورسولَه، إلىٰ جاءهم الله بالغنىٰ واليسار، فتبدَّل بهم الحال، وجَنَوْا ثمرةَ صبرهم.

وفي سنوات الصفَّة شعر أبو هريرة بوطأة الجوع الشديد، وأدرك أنه بين أمرين وعليه أن يختار أحدهما: إما الجوع ومصاحبة النبي عليه الصلاة والسلام والفوز بالعلم الغزير والصحبة الكريمة. وإما الشبع، وعندئذ عليه أن يضحِّيَ بكثير من وقته ويُحْرَمَ فيه من صحبة النبي ﷺ والاستماع إليه. واختار أبو هريرة ملازمةَ النبي ﷺ وعزم على أن يتحمّل، وأدرك أن مع العسرِ يسراً، وأن الله سيعوِّضه عن جوعه وفقره ثواباً كبيراً، وعلماً عظيماً.

بل إنه فهم من النبيِّ ﷺ أنه يريد منه إشغالَ مواهبه بالأمر الأول، فقد رآه النبي عليه الصلاة والسلام في أوائل أيام الصحبة يغرس غرساً، فقال له: «ما تصنع يا أبا هريرة» فقال: أغرس غرساً، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على غرسٍ خير لك منه»؟ فقال أبو هريرة: وما هو؟ فقال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لك بكل واحدة شجرة». وفطن أبو هريرة إلى أنَّ النبيَّ ﷺ يريد منه أن يلزمه ليتعلَّم منه العلم والذكر، وأنْ يشغل نفسه بهذا.

ومَرَّتْ على أبي هريرة أيامٌ قاسية كان يجوع فيها حتى يخرَّ إلى الأرض، فيصرع في المسجد النبوي ما بين المنبر وحجرة السيدة عائشة، فيجيء بعض الغرباء من الناس فيحسبونه مجنوناً

يصيبه الصَّرَع، فيضعون أيدِيَهم على رأسه، وأحياناً أرجلَهم على بطنه، ويحرّكونه، فينظر إليهم ويقول لهم: (ما بي ما تظنّون، ليس بي إلا الجوع).

وصار أبو هريرة يستعين بالحجارة، فيشدها على بطنه تخفيفاً من بعض ما يجده، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام يراه، فيحزن لحاله، ولا يجد له ما يسكّن به جوعه، فقد كانت بيوت النبي عليه الصلاة والسلام تخلو أياماً عديدة من الطعام، وكذا بيوت الصحابة، فقد شغل الجهادُ القومَ عن تثمير الأموال والتجارات وصَرَفَهم عن الكسب والادِّخار!!

وكان يعزِّي أبا هريرة عَمَّا يصيبه ما كان يصيب إخوانه من أهل الصفة من الجوع، كذلك كان يعزِّيه عن ذلك بِرُّ رسول الله ﷺ به ومواساته له، وكذلك مواساة الأصحاب.

جاع يوماً جوعاً شديداً فخرَّ إلى الأرض في المسجد، وجاء النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وقال له: «يا أبا هريرة» فأجابه: لبيك وسعديك، ومدَّ النبي عليه الصلاة والسلام يده، وأخذ بيد أبي هريرة وأقامه، وانطلق به إلى بيته، فقدّم له شيئاً من لبن، فشرب منه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: «عُدْ

أبا هريـرة»، فعاد وشـرب، ثم قال لـه: «عُدْ» فعـاد وشرب، حتى استوىٰ بطنُه وامتلأ، ثم انصرف فرحاً شاكراً.

ومضت سنوات الجوع على أبـي هريرة، وأصبحت في ذهنـه ذكـريات جميلة عـذبـة، رواهـا لتـلاميـذه الكثيـرين، ووصف لهم ما تحمَّله من أجل الصحبة ومن أجل العلم. وتعجَّبت الأجيـال من صنيع هذا الرجل العظيم الصابر، وحَمِدت له صبرَه وتحمُّلَه الـذي عاد بالبركة والنفع عليه وعليها.

حَدَّث أبو هريرة أصحابه يوماً عن ذكريات جوعه فقال لهم:

(والـذي لا إله إلا هـو، إنْ كنتُ لأعتمد بكبـدي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشدُّ الحجـر على بطني من الجـوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرَّ أبو بكر، فسألته عن آيـة من كتاب الله، مـا سـألتـه إلا ليشبعني، فمـرَّ ولم يفعـل. ثم مـرَّ بـي عمـر، فسـألتـه عن آيـة من كتـاب الله، مـا سـألتـه إلا ليشبعني، فمـرَّ فلم يفعل. ثم مـرَّ بـي أبـو القـاسم ﷺ، فتبسَّم حين رآني، وعَـرَف مـا في نفسي ومـا في وجهي، ثم قـال: «أبـا هـرّ»، قلت: لبيك يـا رسول الله، قـال: «الْحَقْ»، ومضى فتبعتُه، فدخل فاستأذن فأذن لي، فوجد لبناً في قَدَح، فقـال: «من أين هـذا اللبن؟» قالوا: أهـداه لك فـلان، قال: «أبـا هرّ»، قلت: لبيـك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ إلى أهل الصُّفَّة، فادْعُهم لي».

يقول أبو هريرة: فساءَني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصُّفَّة؟ كنت أحقّ أنا أنْ أصيبَ من هذا اللبن شَربة أتقوى بها، ثم قلت لنفسي: إذا جاؤوا، أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، فحزنت لذلك، ولكن لم يكن من طاعة الله رسوله بُدّ!!.

فأتيتُهم، فدعوتهم، فأقبلوا فاستأذنوا فأذِنَ لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، وقال لي النبي عليه الصلاة والسلام: «يا أبا هرّ»، فقلت: لبيك يا رسولَ الله، فقال: «خذ فأعطهم»، وجعلت أُعطي الرجل فيشرب حتى يَرْوَىٰ، ثم يرد القدح، فأعطيه الرجل الآخر فيشرب حتى يَرْوَىٰ، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد رَوِيَ القوم كلُّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسَّم، وقال: «أبا هرّ»، فقلت: لبيك يا رسول الله، فقال: «بقيتُ أنا وأنت، اقعد فاشرب»، فقعدت فشربت، فقال: «اشرب» فشربت فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجدُ له مسلكاً، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «أرني» فأعطيتُه القدح، فحمِدَ الله وسمَّىٰ وشرب الفَضْلة.

عانى أبو هريرة رضي الله عنه من الجوع شيئاً كثيراً، وصَبَر

عليه أياماً طويلة، ولكأنه كان يُحِسُّ في أعماق نفسه أنَّ صحبته للنبي عليه الصلاة والسلام قد لا تطول، وأنه قد تأخَّر في الهجرة إليه، فليحرصْ على كل لحظة في صحبته له، وليصبِرْ على كل ما يصيبه في سبيل ذلك، فسوف تأتي عليه أيام يشبع فيها، فيكون قد فاز بأوفى نصيب.

ومع جوعه رضي الله عنه، فقد كان عفيفاً حييّاً، لا يطلب من أحد، ولا يشكو إلى أحد، إلا ما كان يبثُّه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وإلا ما كان يتعرض به لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما أحياناً، فقد كان يرى أن منزلتهما تلي منزلةَ رسول الله في المسلمين، وكان يراهما أبرَّ الناس بالمسلمين بعده عليه الصلاة والسلام. وكان هناك رجل كثير البِرّ بأبي هريرة، ذلك الرجل هو جعفر بن أبي طالب الذي أحبه أبو هريرة من أيام خيبر، ولكنّ الحياة لم تطل به ـ وا أسفاه ـ فقد قضى شهيداً يوم مؤتة، وبكاه أبو هريرة وظلَّت ذكراه طيّبةً في قلبه وعلى لسانه.

كان أبو هريرة سعيداً رغم جوعه، فكان قربُه من رسول الله ﷺ أمتعَ شيء عنده في الوجود، وكان الجوع لا يمنعه من حُسْن الاستماع والتلقي عن النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يمنعه عن تذكُّر الأحاديث ليلاً بعد صلاة العشاء، ولا يحول دون عرضه ما معه من القرآن على أبيّ بن كعب وعبد الله بن

مسعـود وزيد بن ثـابت، أولئك الثـلاثة الـذين أحبهم كثيـراً لأنهم كـانوا يعـطونه من وقتهم الشـيء الكثيـر؛ ليعرض عليهم مـا حفظه من كتاب الله تعالى.

ولقد بقيت صور تلك السنـوات التي قضاهـا في الصُّفَّة قـريباً من نبيِّـه الحبيب ﷺ؛ عالقـةً في ذهنـه طيلة حيـاتـه، فهي أسعـدُ أيامه، ولقد أدرك أبو هريرة بعد انتقال النبـي عليه الصلاة والسـلام للرفيق الأعلى؛ أنَّ الله تعالى هو الذي هيّأ له بكرمه وعنايته الخير العميم، وهو الذي جعله يصبر على الجوع ويتحمّل مشاقه، من أجل أن يظفر بما ظفر به من العلم الكثير الطيب.

وفي الصُّفَّة تعرَّفَ أبـو هريـرة على إخوان صـدق، جمع بينـه وبينهـم الإيمان والحب والطاعة والصبر على الشدائد من أجل الله ورسـوله. ففيهـا تعرَّف على بـلال بن ربـاح، والبـراء بن مـالـك، وحــذيفـة بن اليمــان، وأبـي ذر الغِفَـاري، وخبَّــاب بن الأرَتّ، وزيـد بن الخطاب، وبشيـر بن الخصـاصيـة، وسلمـان الفـارسي، وسفينـة مـولى رســول الله، وربيعـة بن كعب خــادم رسـول الله، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم من أولئـك الـرجال الفقـراء العظمـاء الـذين خلَّد التاريخ ذكرهم، وَبَيَّضَتْ أعمـالُهم صفحاتِـه، فكانـوا أئمّةَ هدى، ومناراتِ رشادٍ وسداد.

— ٧ —

مضت عـدّةُ أشهر على صحبـة أبي هـريـرة لـرسـول الله ﷺ، اجتهـد فيها اجتهـاداً عظيمـاً في الاستماع والحفظ وتـلاوة القـرآن الكـريم، واستطاع أن يُحيط بتفـاصيـل سيـرة النبـي عليـه الصـلاة والسـلام منـذ أنـزل الله عليـه الـوحي، فقـد قصَّ عليـه النبيُّ ﷺ أخبـارَه الماضيـة، ولقد سمـع تفاصيـل قصة الهجـرة من أبـي بكر الصديق، وسألَ عدداً من سادة الصحابة وكبرائهم عن أيام: بـدر، وأحد، والخندق، فقصُّوا عليه أخبارَ تلك الأيام، وسُجِّلت أحداثها في ذاكرته حتى كأنه رآها بعينيه.

وفي هذا العام الأول لصحبة أبـي هريـرة للنبـيِّ عليه الصـلاة والسـلام تَرَك المـدينـة، وخـرج مـع النبـي غـازيـاً قِبَـل نجـد في الغـزوة التي سُمِّيت بذات الـرِّقاع[1]، ولـم يحصـل في هذه الغـزوة قتـال، وإنْ حصل فيهـا خوف كـل فريق من الآخـر، حتى اضـطر المسلمون أن يصلّوا صلاة الخوف.

---

(١) أكثر كتب السير درجت على ذكر هذه الغزوة قبل وقعة الخندق، بَيْـد أن هناك حديثاً في البخاري وأحاديثَ صحيحة عنـد أهل السنن تفيـد حضور أبـي هريرة وأبـي موسى الأشعري لهـا، وكلاهمـا هاجـر إلى النبـي عليه الصلاة والسلام أيـام خيبر، ولعـل النبـيَّ عليه الصـلاة والسلام غـزا قِبَل نجد غزوتين، وفي زمانين مختلفين.

وفي هذه الغزاة لقي أبو هريرة وغيره من الصحابة ما لَقُوا من الشدائد؛ فنقِبَت أقدامُهم، وسقطت أظفارهم، حتى جعلوا يلفُّون الخِرَق على أرجلهم، وسمَّوا هذه الغزوة بغزوة (ذات الرقاع).

وفي هذه السنة أيضاً صحب أبو هريرة رسولَ الله ﷺ والمسلمين إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، ودَخلَ مكة لأول مرة، ورأىٰ الكعبة المعظمة، وفاضت عَبْرته، وجاشت عواطفه، وطاف حول الكعبة مهروِلاً، فقد سمع النبي ﷺ يقول لأصحابه:

«رحم الله امرءاً أراهم ـ أي المشركين ـ اليوم من نفسه قوة».

ورآه قد استلم الركن، وجعل يهرول هو وأصحابه، ورأىٰ علوَّ شأنِ الإسلام، وتراجعَ الكفر، وأيقن أنَّ هذا الدين سيغلب على مكة، وأنَّ الله سيُظهره على الدين كلِّه.

ـ ٨ ـ

تحمَّل أبو هريرة مرارةَ الجوع والحِرمان، وصَبَر على ذلك صبراً جميلاً بَيْد أنه أشفق على أمه، وخشي أن يدخل عليها دَخَلٌ في إيمانها ويقينها؛ بسبب ما تجد هي الأخرى من الفاقة والخَصاصِيَة، وفكَّر في أن يعمل عملاً يكسب منه ولو شيئاً يسيراً

ينتفع به هو وأمُّه، ولكنه خَشِيَ أن يحرمه العملُ من صحبة النبي عليه الصلاة والسلام والاستماع إليه، وظل زمناً بين الإقدام والإحجام، وأخيراً وَجَد عملاً ظن أنه يتلاءم مع صحبته لرسول الله ﷺ، ولا يحرمه منها، فأقبل عليه يجرِّبه.

أقدم أبو هريرة على تأجير نفسه من صحابية جليلة ميسورة الحال هي (بُسرة بنت غزوان)؛ على أن يخدُمَها هي وزوجَها ويصحبهما في أسفارهما، وكان الأجر شبعَ بطنه، وعُقْبةَ رِجْلِه، وعَزَم أبو هريرة أن يقتطع من زادِه جزءاً يكفي أمَّه، وبذلك يأمن ما قد خَشِيَه عليها.

واشترط أبو هريرة على ابنةِ غزوان أن لا تمنعَه من حضور الصلاة مع النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا تَشْغَلَه ليلاً، وأن يَقْضِيَ وقتَ فراغه في المسجد، وأن لا يخرج معهم في سفر إلا إذا كان السفر في صحبةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ورَضيَتْ ابنة غزوان بهذه الشروط. وابتدأ أبو هريرة عمله، وأبدى نشاطاً فيه، وفوَّت هذا العمل عليه شيئاً يسيراً من ملازمة النبي عليه الصلاة والسلام، كان يستدركه بسؤال رسول الله ﷺ، وبسؤال أنس بن مالك وابن مسعود في بعض الأحيان.

وأُعجبت بُسرة بنت غزوان بأجيرها، وأُعجب زوجها كذلك،

فقد كان أميناً قوياً، عالماً حافظاً لسُوَرٍ من القرآن، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، فكان يقرأ لهم القرآن بصوتِهِ الحزين، فيتأثّران بقراءته، وكان يحدِّثهم بحديث النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وكانت ابنة غزوان قد اشترطت عليه الطاعة، فأعطاها ما اشترطَتْ، وَوَجدت منه الوفاء التام. وأحبَّتْ يوماً أن تمتحِنَه، فَعَمَدتْ إلى بعيرٍ واقفٍ وقالت له: أبا هريرة، اركب هذا الجمل وهو واقف، ولم يتردَّد أبو هريرة، فما كان منه إلا أنْ وَثَب على الجمل وعلا ظهرَه، وضحِكَتْ بُسرة وضحك زوجها، ثم أمرته بالنزول فنزل، وقالت له: اذهب حافياً وانزِعْ لنا دَلْواً من ماءِ ذاك البئر، وانصاع أبو هريرة للأمر، ومشى حافيَ القدمين في أرضٍ وعرة، حتى أتىٰ البئر فامتاح منها الماء، ورَجَع إليهما، وكان امتحاناً ناجحاً، وفَّىٰ فيه أبو هريرة بشرط الطاعة، ووجدت فيه المرأةُ صدقَه بعهده، ووفاءَه بأمانته، فازدادت به إعجاباً، وأكبرت فيه إيمانه وتقواه.

بَيْد أن عمل أبي هريرة لم يطل، فما مضت عليه أشهر قليلة حتى جاء يعتذر لبسرة قائلاً: إنَّ عملي عندك يصرفني بعضَ الشيء عن رسول الله ﷺ، وأنا امرؤٌ هاجرتُ من بلادي من أجل أنْ أصحبَه صحبةً تامة، وما أحب أن تُجمع لي الدنيا وأن أُحْرَمَ يوماً من صحبته عليه الصلاة والسلام.

وقبلتْ المرأةُ عذرَ أجيرها، وانتهى عمل أبي هريرة، وعاد إلى سيرته الأولىٰ، عاد عريفاً لأهلِ الصُّفَّة، ملازماً لرسول الله قريباً منه.

ـ ٩ ـ

أذَّنَ مؤذِّنُ رسولِ الله ﷺ بالخروج للجهاد، وَعَزم رسول الله على أصحابه بالخروج في هذا الوجه، ورأى أبو هريرة شدَّة عزيمة النبي عليه الصلاة والسلام، فقال في نفسه: لا بد من الخروج، ولو أنَّ رسول الله سيبقى بالمدينة.

وخرج جيش المسلمين إلى مؤتة، وحضر أبو هريرة هناك المعركةَ الرهيبة التي زُلزلت لها القلوب، لكَثرةِ ما كان فيها للأعداء الرومان من عددٍ كبير وعُدّةٍ عظيمة، ولقلة عدد المسلمين وعُدّتهم. وفي تلك المعركة رأى أبو هريرة ما يفعله الإيمان في المعارك، وكيف يُغني عن كثيرٍ من السلاح والعدد، وسمع فيها استهانةَ المؤمنين بأعدائهم.

ففيها سمع عبدَ الله بن رَوَاحة ـ وكان أحدَ أمراء الجيش المسلم الثلاثة ـ يخطب الناس قبل الحرب حين أصابهم بعض الوهْن فتردَّدوا في خوض المعركة: (يا قوم، والله إنَّ التي تكرهون لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة

ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنَّما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة).

ورأىٰ أثرَ كلمةِ ابن رواحة في القوم، فتشجَّعوا على خوض المعركة، وقالوا: صدق واللهِ ابنُ رَوَاحة.

وفي الصف أمام الأعداء بَرَقَ بصرُ أبي هريرة لما رأىٰ من العُدّة والسلاح والكُراع ــ الخيل ــ والديباج والحرير والذهب، في صفوف الأعداء؛ ولاحظ ذلك ثابتُ بنُ أَقْرم في وجهه، وكان يقف إلى جانبه، فقال له:

يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعاً كثيرة؟ فقال: نعم، فقال ثابت: إنك لم تشهد معنا بدراً، إننا لم نُنصر بالكثرة.

ورأى أبو هريرة بأمِّ عينيه انتصارَ الإيمان، وشاهد تقهقر الرومان، وتوقُّفَهم عن القتال، بسبب حُسْن بلاء المسلمين وصبرهم وصمودهم أمام ذلك الجيش الكثيف.

كانت معركة مؤتة في النصف الأول من السنة الثامنة للهجرة، تلك السنة التي كانت السنة الثانية في صحبة أبي هريرة للنبيِّ عليه الصلاة والسلام. ولم يكن هذا المشهد هو المشهدَ الوحيد الذي شهده أبو هريرة فيها، فقد حفل عامُهُ هذا بالمشاهد الإسلامية العظيمة، فبعد ثلاثة أشهر من مؤتة، توجَّه النبيُّ ﷺ

بجيشٍ كثيف لفتح مكة، وخرج من مدينته المنوَّرة في شهر رمضان، وفاجأ قريشاً، وفتح الله عليه البلدةَ المكرمة، ودخلها عليه الصلاة والسلام وقد أحنىٰ ظهرَه حتى كادت جبهتُه تَمَسُّ قادِمَةَ رَحله، تواضعاً لله تعالى، وكان يتلو أثناءَ ذلك سورة الفتح.

كان أبو هريرة قريباً من النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ولقد كلّفه قبلَ دخولِ مكة بمهمةٍ عظيمة، طلب إليه أن يدعوَ إليه الأنصار، ففعل، ثم كان قريباً منه بعد تمام الفتح. وكان سرورُه بالغاً حينما رأىٰ رسولَ الله ﷺ يأتي على الأصنام المنصوبة حول البيت، فيطعَنُها بعود كان في يده ويقول: «جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطل، جاء الحقُ وما يُبدىء الباطل وما يعيد». وشاركَ أبو هريرة بتكسيرِ تلك الأصنام ورميها خارجَ المسجد، وتمنَّىٰ يومئذٍ أن يقترب يومُ أصنام قومه: (ذي الخَلَصة، وذي الكَفَّين، وذي الشَّرَى)، وأن يحلَّ فيها ما حل (بهُبل، ومَناة، وإساف، ونائلة)، وغيرها من أصنام الحرم.

وبعد الفتح الأكبر شَهِدَ أبو هريرة مشهداً آخر لا يقلّ عن فتح مكة في جلاله، ذلك المشهد هو يوم حُنَين، الذي زُلزل فيه المسلمون زلزالاً شديداً؛ بسبب غفلتهم عن الاعتماد على ربهم واغترارهم بعددهم الكثير، ورأى كيف أنَّ ثباتَ النبي عليه الصلاة

والسلام وثباتَ عددٍ قليل من أصحابه وبطولاتهم قد غيَّر وجهَ المعركة، وقَلَبَ الهزيمة نصراً، ويومَها أدرك إدراكاً عظيماً المعنىٰ الكبير والصورة الواضحة لقوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

ورأى أبو هريرة عَظَمةَ قيادةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام للجيوش، فهو لم يكتفِ بذلك النصر المؤزَّر في حنين، بل أصدر أوامره بتتبع العدو إلى الطائف حيث فرّ (مالكُ بنُ عوف) قائدُهم، وحُوصرت الطائف، وتحصَّنَتْ قبيلةُ ثَقِيف ببلدتها، واشتد الحصار، وزُلزلت ثقيف، لكنها صَمَدت اعتماداً على مناعة سُورها، ورأىٰ النبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يفكَّ الحصارَ عن هذه البلد، ورجا أن يؤمِنَ أهلها بعد حين، وكان بعد وقتٍ قصير ما رجاه النبي عليه الصلاة والسلام.

وبعد حصار الطائفِ شهدَ أبو هريرةَ موقفاً أثار أشجانه وعواطفه، ونُقِشَ في ذاكرته، وظل يحدِّث به زماناً طويلاً.

شهد أبو هريرة تقسيمَ النبيِّ ﷺ للغنائم التي حازها المسلمون يوم حنين ـ وكانت غنائمَ عظيمةً وكبيرة ـ ورأىٰ كيف أعطى النبيُّ عليه الصلاة والسلام سادةَ قريشٍ ووجوهَ العرب عطاءً عظيماً ليتألَّفَ قلوبَهم، وسمع يومها صفوان بن أمية يقول:

(إنَّ الملوك لا تطيب نفوسُها بمثل هذا ـ أي العطاء ـ، ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي! أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله).

ورأىٰ أبو هريرة وَجْدَ الأنصار على رسول الله لأنه أعطى غيرهم ولم يعطهم، وسمع كلمةً جعل بعض الناس يتهامسون بها: (لَقِيَ رسول الله قومَه). وشاهد يومَها غضبَ النبي لهذه الكلمة، وكيف أنه أمرَ أحد زعماء الأنصار أن يجمع له قومه، ورأىٰ الأنصار يتجمّعون ثم يذهب إليهم رسول الله ويتحدّث إليهم قليلاً، ثم ينفضّون عنه وهم فرحون مستبشرون، قد زال عنهم ما كان بهم من وَجْدٍ وحزن.

وتاقَت نفسُ أبي هريرة لمعرفة ما جرىٰ بين النبيِّ والأنصار، وتمنَّى أن يعلمَ ماذا كلّمهم رسولُ الله ﷺ حتى حوَّل غضبَهم إلى

رضاً وحزنهم إلى فرح، وسعى إلى شابّ حدَثٍ منهم، ولكنه لبيبٌ فَطِن، هو أبو سعيد الخدري، وقال له: اجلس أبا سعيد حدثني عما جرى بينكم وبين رسول الله وماذا قال لكم. وجلس أبو سعيد يحدِّث أبا هريرة ويقول:

خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟! ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم»؟!.

وقلنا: بلى، واللهُ ورسولُه أَمَنُّ وأفضل.

ثم قال لنا: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار». فقلنا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ للهِ ولرسوله المنُّ والفضل، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتُم وصُدِّقتم: أتيتَنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك....

أوَجَدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعاعة من الدنيا، تألَّفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟.

ألا تَرضَوْنَ يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاةِ والبعير، وتَرْجِعوا برسولِ الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لولا

الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سَلَك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً؛ لسلكتُ شِعْب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار»!!.

وسمع القوم يا أبا هريرة كلامَ رسول الله، فتأثّروا به وبكَوْا حتى أَخْضَلوا لحاهم، وقاموا إلى رسول الله فقالوا له: (رضينا برسول الله قَسَماً وحظاً).

وبكىٰ أبو هريرة لما سمعه من أبي سعيد الخدري، وأدهشه ذلك الدرس البليغ من دروس التربية العالية الذي ألقاه رسول الله ﷺ على الأنصار، فارتفع بهم إلى مستوى عالٍ رفيعٍ من مستويات الإيمان والتصديق والزهادة في عَرَض الدنيا.

— ١٠ —

نحن الآن في نهاية السنة الثامنة للهجرة، وقد أوشكت أن تمضيَ سنتان على الصحبة الكريمة. لقد كانت السنتان حافلتين بالملازمة التامة لرسول الله ﷺ، وبحضور المشاهد معه. ورأى النبي عليه الصلاة والسلام أنَّ أبا هريرة قد حصَّل نصيباً طيباً من العلم، وأنه قد أصبح أهلاً للدعوة إلى الله ورسوله، وتفقيه الناس في دين الله، لذا عزم على إرساله إلى البحرين مع العلاء بن الحضرمي، ففي البحرين ملكٌ عاقل هو (المنذر بن ساوَى)؛ وهو

يـرحِّب بأن يـرسل النبـيُّ عليـه الصـلاة والسـلام مَن يعـرض على قومه الإسلام.

وأطلع النبـيُّ أبا هريرة على رغبته في ذهـابه إلى البحـرين مع العـلاء، فصعُبَ عليـه فـراقَ رسـول الله عليـه الصـلاة والســلام، وأوشك أن يطلب منه أن يُعفيَه من هذا الأمر، لكنه خشيَ أن يكون في ذلك معصيةٌ لرسول الله، وأدرك أنَّ طاعته عليه الصلاة والسلام لا تكـون في المنْشَطِ فقط، بل تكـون في المنشطِ والمكره، فقـال له: إنه يعزُّ عليَّ فراقُك يا رسول الله، ولكني أطيعك فيما أحببت.

وأرســل النبـي عـليــه الصــلاة والســلام وراءَ العــلاء بـن الحضرمي، فحمَّله الرسالة التالية إلى المنذر بن ساوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمـدٍ رسول الله إلى المنـذر ابن ساوى:

سـلام على من اتَّبـع الهـدى، أمـا بعــدُ: فـإني أدعــوك إلى الإسلام، فأسلِمْ تسلَمْ يجعَلِ اللهُ لك مـا تحت يديـك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحـافر... واعلم أنـه من صلَّى صلاتنا، واستقبـل قبلتنا، وأكـل ذبيحتنا، فـذلك المسلم الـذي له ما لنا وعليه ما علينا».

ثم قـال النبـي عليه السـلام للعلاء: «إن أجـابـك فـأقم حتى

يـأتيَك أمـري، وخُذْ الصـدقةَ من أغنيـائهم، فرُدَّهـا في فقرائهم».
ثم أوصاه خيراً بأبـي هريرة.

وانطلق أبو هريرة من المـدينة بصحبـة العلاء بن الحضـرمي، بعد أن وَدَّع النبـي عليه الصلاة والسلام وكان آخر ما سمعه منه: «أستودعك الله الـذي لا تضيع ودائعُـه». وودَّع أمَّه وسـارَ وهو جـدُّ حـزين لفـراق رســول الله ﷺ، ورأىٰ العـلاءُ الحـزنَ في وجــهِ أبـي هـريرة، فـأقبل عليـه وقال لـه: مالـك يا أبـا هريـرة حـزينـاً؟ فأجابه: والله لست حزيناً على شيء إلا علىٰ فراق رسول الله ﷺ، وعلى ما يفوتني من حديثه، فقال له العلاء: طبْ نفساً أبـا هريـرة، فإنَّ لك منزلةً عند رسول الله وإنه يحبك، ولقـد أوصاني بـك خيراً فانظر ما تحب أصنعه لك.

وسُـرِّيَ عن أبـي هريـرة بعضُ حزنـه، وقال للعـلاء: اجعلني أؤذنْ لك، ولا تسبِقْني بآمين! فأجابه العلاء: لـكَ ما أحببتَ يـا أبا هريرة، ولكن أخبرني لماذا تريد هذين الأمرين؟ فـأجابـه: سمعت رسول الله ﷺ يقول في النداء: «المؤذنون أطـول الناس أعنـاقاً يـوم القيـامة». وسمعتـه يقول: «إذا أمَّن الإمـام فأمِّنـوا، فـإنـه مَنْ وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وتعجب العـلاء من حرصِ أبـي هـريرة على الثـواب، وسَـرَّه روايتُه لحديث النبـي ﷺ، وفرح بصحبته أيّما فرح.

وفي البحرين دفع العلاء بن الحضرمي كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوَى العَبْدي، وعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه أبو هريرة القرآن وحدَّثه بحديث رسول الله ﷺ، فأسلمَ الرجل، وأسلمَ كثيرون من قومه بإسلامه، وكتب العلاء بذلك إلى رسول الله.

وفي البحرين دوَّىٰ صوت أبي هريرة بالنداء الكريم: (الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله... إلخ). وكان الناس من أهل البحرين يُهْرَعون إلى الصلاة كلما سمعوا هذا النداءَ، ويقفون صفوفاً خلفَ العلاء، ويقف أبو هريرة وراءَه تماماً، ثم يؤدُّون صلاتهم.

وهناك أمضىٰ أبو هريرة أشهراً من حياته، يبلِّغ فيها دعوةَ الله، ويعلِّم الناس الإسلام، وسعد بصحبة أميره العلاء بن الحضرمي، وصحبةِ الرجلِ الكريم المنذر بن ساوَى، ورأىٰ منهما كلَّ خير.

— ١١ —

أمضىٰ أبو هريرة ما يزيد على ستةِ أشهر من العام التاسع للهجرة في البحرين بصحبة العلاء بن الحضْرمي، واجتهد في دعوة الناس إلى الله ورسوله، وأقبل الناس بدعوته ودعوة العلاء

على الإسلام. لكنَّ أبا هريرة كانت نفسه تتوق إلى العودة للمدينة، والعيش مع أحب الناس إليه: رسولِ الله ﷺ، وصار يدعو ربَّه أن يهيِّىء له سبيلاً إلى العودة. واستجيب دعاؤه، فها هو ذا (أبان بن سعيد بن العاص) قد جاء والياً على البحرين من قِبَل رسول الله ﷺ، وهو يحمل معه أمره عليه السلام للعلاء ولأبي هريرة بالعودة إلى المدينة.

وليس يعلمُ إلا اللهُ كم كان سرور أبي هريرة بعودته إلى المدينة، ورؤيتِهِ رسول الله.

ورجع أبو هريرة إلى موضعه في الصفّة، وعاد عريفاً لأهلها، ولزم رسولَ الله من جديد، وعاد يطلب العلم بنَهَم شديد ورغبة فائقة، يريد أن يعوِّض ما فاته أثناء غيابه في البحرين.

وفي شهر رجب من هذا العام خرج في جيش المسلمين العظيم الذي كان رسولُ الله ﷺ يقوده إلى تبوك، وتحمَّل هو وسائر الصَّحْب الكرام مشقَّةً بالغةً في تلك الغزوة التي بَعُدَت شُقَّتها، وسجَّلت ذاكرتُه صُوَراً كثيرة لتلك الرحلة الصعبة، كان منها هذه الصورة الرائعة ذات الدلالات الكثيرة. يقول أبو هريرة:

(لما كان غزوة تبوك، أصاب الناسَ مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنتَ لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادَّهنَّا، فقال

رسول الله ﷺ: «افعلوا». وجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلتَ قلَّ الظَّهْر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله: «نعم»، فدعا بنِطع ـ بساط من جلد ـ فبسطه، ثم دعا بفضْل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكفّ ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكِسْرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: «خذوا في أوعيتكم» فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فَضْلة، فقال رسول الله ﷺ:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فيُحْجَبَ عن الجنة».

وفي موسم الحج من هذا العام استأذن أبو هريرة رسول الله ﷺ في أن يذهب بصحبة أبي بكر الصديق ـ أمير الحج ـ لأداء هذه الفريضة، فأذن له، فذهب معه وأدى الفريضة، وكلفه أبو بكر مع جماعة من الصحابة أن ينادُوا بالحجيج جميعاً ـ وكان الحج يجمع المسلمين والمشركين ـ بهذه الكلمات:

(أيُّها النَّاس: لا يدخلُ الجنَّةَ إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوف

بالبيت عُرْيان، ولا يجتمع مسلمٌ مع مُشْرِكٍ في الحج بعد عامهم هذا، ومن كان له عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهدٌ فأربعة أشهر).

ونادى أبو هريرة وأصحابه بهذه الكلمات في منى، وطاف بها على خيام الحجيج، وبُحَّ صوته لكثرة ما نادى. ثم قام مع علي بن أبي طالب ـ وكان قد أرسله النبيُّ عليه الصلاة والسلام بآياتٍ من سورة براءة يقرأها على الناس ـ فجعل يقرأ هذه الآيات معه على الناس ويقول: (ذمة الله بريئةٌ من كلِّ مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يحجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عُرْيان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن). وكان يتناوب هو وعليٌّ تبليغ هذا النداء حتى بُحَّ صوته، وحتى بلَّغ جميع الحجيج بلاغ رسول الله ﷺ.

ـ ١٢ ـ

كانت السنة العاشرة للهجرة سَنَةً هادئةً في حياةِ رسول الله ﷺ، فلم يتخللها جهاد، ولا كثرة غيابٍ عن المدينة، فقد فَتَحَ الله على نبيِّه جزيرةَ العرب كلِّها، وأتَتْه الوفودُ بعد فتح مكة من كل جهة، لذا أقام رسول الله ﷺ طيلةَ أشهر هذه السنة في مدينته الطيبة، إلا ما كان من خروجه في نهايتها لأداء حَجَّةِ الوداع.

ونَعِم أبو هريرة في هذه السنة بكثرة ملازمته للنبيِّ ﷺ، وكثرة تعلّمِهِ منه، وكانت تلك السنة هي السنة الرابعة لصحبته للنبيِّ عليه الصلاة والسلام. ولم يُتَحْ له في أيّ سنةٍ سبقت ما أُتيح له فيها، فقد ازداد عطف النبي عليه الصلاة والسلام عليه، وازداد هو رغبة في العلم، وصار النبي عليه الصلاة والسلام يخصه ببعض الوصايا، فيحفظها عنه ويعمل بها.

قال له مرة: «يا أبا هريرة، كن وَرِعاً تكن أعبدَ الناس، وكن قَنِعاً تكن أشكرَ الناس، وأَحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وأقلَّ الضحك، فإنَّ كثرة الضحك تميت القلب».

وأوصاه مرةً ثانية بأمور ثلاث، ذكرها أبو هريرة فقال:

(أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثةِ أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام).

وكثرت وصاياه عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة، بل جعل يخصُّه ببعض العلم ويأمره أن لا يبثَّه، وكثر ذلك العلم الخاص، حتى إنَّ أبا هريرة قد أصبح ـ بعد ما صار كبيرَ معلِّمي الإسلام فيما بعد، وبعدما صار بعضُ الناس ينقدون كَثرةَ رواياته عن النبي ـ أصبح يصرِّحُ للناس أنَّ عنده علماً ما باح به ولن يبوح، ويقول:

(رُبَّ كيسٍ عند أبي هريرة لم يفتحه). ويقول: (حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فَبَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بَثَثْتُه قُطِعَ مني هذا البلعوم). وكان يريد بذلك أن أهل الجَوْر ربما قطعوا رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم.

ـ ١٣ ـ

وجاء رمضان، واعتكف النبيُّ عليه الصلاة والسلام في مسجده عشرين يوماً هذه السنة، وكان قد عوّدهم أن يعتكف العشر الأواخر، وسَعِدَ أهل الصُّفَّة بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وسعدوا كذلك بمجيء جبريل إليه عليهما السلام يعرض عليه النبي القرآن كل يوم، وكانوا يعرفون ذلك بما كان يظهر علىٰ النبيِّ عليه الصلاة والسلام من تَعَبٍ وإرهاق.

وكان أسعدَهم به أبو هريرة، فقد اعتكف معه وعاش إلى جنبه.

وأمر النبيُّ عليه الصلاة والسلام أصحابَه بإخراج زكاة الفطر، وجمعِها في بيت ريثما يدفعها لأصحابها الفقراء، وجعل أبا هريرة قيِّماً على ذلك البيت، فقام بعمله خير قيام، وجعل يتفقَّدُها طَرَفي النهار ليطمئنَّ عليها فيراها كما هي فترتاح نفسُهُ ويطمئنَّ قلبُه.

وفوجىء أبو هريرة عَشِيَّة يومٍ داخل غرفة الصدقات بشخص غريب لا يعرفه، ومعه وعاء يملؤه من تمر الصدقة فهجم عليه أبو هريرة، وانتهره وأمسكه بيديه قائلًا له: لأرفعنَّ أمرَك إلى رسول الله ﷺ، فليعاقبنّك.

وجعل الرجل يستعطف أبا هريرة ويقول له: إني محتاج ولي عيال، وبي حاجة شديدة، واستطاع أن يكسب عطف أبي هريرة فتركه ظناً منه أنه إنما اضطر للسرقة لحاجته، وفوجىء أبو هريرة في الصباح بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام يقول له:

«يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة»؟.

وأجاب أبو هريرة: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً وعيالًا فَرَحِمْتُه، فَخَلَّيْتُ سبيلَهُ، فقال له: «أما إنه كذبك وسيعود».

وأيقن أبو هريرة أنَّ ذلك الرجل سيعود لقول النبي عليه الصلاة والسلام، فترصَّد له في الليلة التالية، فجاء وفتح باب بيت الصدقات ودخل وجعل يحثو من التمر الذي فيه، وداهمه أبو هريرة، وأمسكه هذه المرة بعنف وقال: أما وعدتني أنك لا تعود؟ لا جَرَم سأرفعنَّ أمرَك إلى رسول الله ولأفضحنَّك في المسلمين. ولكن ذلك الرجل كان لَسِناً، قويَّ المنطق، حارَّ الاستعطاف، فاستطاع أن يكسب عطفَ أبي هريرة ثانيةً، وأن ينجوَ من قبضته.

ومرة ثانية سمع أبو هريرة رسول الله ﷺ يقول له: «ما فعل أسيرك؟» فيجيبُه أبو هريرة: شكا حاجةً شديدةً وعيالاً فرحمتُه وخَلَّيْتُ سبيلَه، وقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنه كذبك وسيعود».

وللمرة الثالثة قبض أبو هريرة عليه وهو يسرق من مال الصدقة، فصرخ فيه صرخةً قويةً واندفع نحوه، وأمسكه بغضب، وقال له: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، فهذه ثالث مرة تزعم أنك لا تعود ثم تعود!!.

وضغط أبو هريرة بقبضته على ذراع ذلك الشخص، وأخذ بيده الأخرى بتلابيبه وجَذَبَه جذبةً قويةً، وأدرك ذاك أنَّ الأمر جِدٌّ، وأعمل فكره ليوجِدَ حيلةً ينجو بها من الأسر الذي وقع فيه، وانتهى إلى حيلةٍ بارعةٍ، فهذا الرجل الذي يأسره يمكن أن يؤتىٰ من التحدُّثِ معه في أمور العلم فالعلم أشهىٰ عنده من كل شيء، ومسائل العلم يطلبها بالغالي والرخيص، وقال لأبي هريرة:

دعني أعلِّمْك كلمات ينفعك الله بها.

وسمع أبو هريرة بكلمة (أعلمك) فارتخت قبضته، وهدأ غضبه، وقال له فوراً: وما هنَّ؟ فأجابه: إذا أَوَيْتَ إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ

﴿وَلَا نَوۡمٌ﴾. حتى تختم الآية، فإنه لا يزال عليك من الله حافظٌ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح.

وقعت هذه الكلمات موقعَها العظيمَ في قلب أبـي هريرة، فقد كان يعظِّم هذه الآية، وأيقن أنَّ صاحبه يصدقه هذه المرة، وَخَـرَج بهذا العلم الذي تعلمه، فأطلق سـراحَ أسيره بعـد أن اشترط عليـه ألَّا يعود.

وبعد صلاة الفجر من الغد قام أبو هـريرة من مجلسـه وجلس إلىٰ جانبِ النبـيِّ عليه الصلاة والسلام، فأَسَرَّ إليـه النبيُّ: «ما فعـل أسيرك»؟ فقال أبو هريـرة: زَعَمَ أنه يعلمني كلمـاتٍ ينفعني الله بها فَخَلَّيْتُ سبيله، فقـال النبـيُّ عليـه الصـلاة والسـلام: «ومـا هن»؟ فأخبره أبو هريـرة بها، وتبسَّم النبـيُّ عليـه الصلاة والسـلام ورضي بصنيع أبـي هريرة وقال له: «أما إنه صَدَقَك وهو كذوب».

وتعجَّب أبـو هريـرة من قولـة النبـي عليه الصـلاة والسلام في الرجل، وقطع النبـيُّ تعجُّبَه بقوله له: «تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليـالٍ»؟ ويقـول أبـو هـريـرة: لا، فيقـول عليـه الصـلاة والسـلام: «ذاك شيطان».

ـ ١٤ ـ

تَجَهَّزَ رسول الله ﷺ في نهاية هذا العام لأداء فـريضة الحـج، وأرسل في القبائل يدعـوهم للخروج معـه، ولبَّى المسلمون دعـوةَ رسولِ الله، وانطلقَ النبـيُّ عليه الصلاة والسـلام ومعه ألـوفٌ كثيرةٌ مِنَ الناس في نهايةِ ذي القَعْدة متوجِّهاً إلى مكة المكرمة.

وشهد أبو هريرة أعظمَ حَشْدٍ من النَّـاس رَأَتْه عينـاه في عمره، وشارك في أعظم رحلةٍ كانت له في حياته، ورأى في تلك المسيرةِ المباركةِ أمـوراً رائعة: رأى حبَّ المسلمين الـذي لا يوصَفُ لنبيِّهم عليـه الصلاة والسـلام والتفافَهم حـوله، وتعبيـرَهُم عن هذا الحبِّ بكـلامهم لـه وخـطابِهم إيَّـاه، وبـابتـدارِهم مـاء وَضـوئـه ومسحِ وجـوههم به، وابتـدارِهم شَعـره الشـريف حين كـان يحلق. ورأى المعجـزةَ الكبيرة التي أجـراهـا الله على يـدي نبيـه عليـه الصـلاة والسلام في تأليف قلوب مئـات القبائـل، وكانت بـالأمس متناحـرةً لا تكفُّ عن سَفْكِ دماءٍ بعضها.

وسمع أبو هريرة رسولَ الله ﷺ يقول: «أيُّها النَّاس خـذوا عني مَنَاسِكَكُم» ففتح قلبَه وعقلَه، وجعل يَتَتَبَّعُ أفعال النبـيِّ عليه الصلاة والسـلام وأقوالَـه، ولم يدع كلمـةً ولا حـركـةً للنبـيِّ تفـوتـه، على الرغم ممَّا كـان يصيبه من الأذى بسببِ الـزحام الهـائل، فقـد كان

الناس يتقاصفـون[1] على رسولِ الله ﷺ، ويـركب بعضهم بعضاً؛ ليسمعوا كلاَمه، وليتباركوا برؤيته، وليسعدوا بالقُرْب منه.

وأدَّى الرَّكْبُ الميمون مناسِكَ الحج، وائتمَّ المسلمون جميعـاً برسول الله ﷺ، وأخذوا عنه أعمـالَ الحج، وسعـدوا بصحبته، ثم عادت القبائل إلى بلادها، وعادَ رسولُ الله ﷺ إلى مدينته الطيبة.

وفي المـدينة المنـوَّرة أدركَ أبو هـريرة أنـه قـد تـزوَّد من هـذه الرحلة بزادٍ عظيم من الإيمانِ واليقينِ والمحبـةِ والفقهِ، لكن كلمـة من كلمـات النبـي عليـه الصـلاة والسـلام كـان قـد سمعهـا منـه في المـوقف من أرض عَرفَـة أورثته حَـزَناً، وفعلت في نفسـه فعلاً عجيباً؛ هذه الكلمة هي قوله عليه الصلاة والسلام:

«أيُّها النَّاس، اسمعوا منِّي، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

وتساءل أبو هريرة: ماذا يقصد رسول الله ﷺ من كلمته هذه؟! أَوَ قد شعر أنَّ أجله قد اقترب، فأنذر أمته بذلك! ما أعظمَها مصيبةً أن أفقِدَ رسول الله ﷺ، إن صحبتي له لم تطل، فيالهول خسـارتي إذا حُرمتُ هذه الصحبة!!.

وعزم أبو هريرة على مزيدٍ من الانتباه للنبـيِّ ﷺ والملازمةِ له،

---

(١) يتقاصفون: يزدحمون.

فجعلَ لا يدع دقيقةً تفوته، واستجمعَ كاملَ وعيه، وكثرت أسئلته، وصار يقول للنبيِّ عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله أوصني، فيستجيب له، ويطالعه كلَّ حين بوصاياه الخالدة الكريمة.

ـ ١٥ ـ

جلس أبو هريرة يوماً بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام في نَفَرٍ من الصحابة، منهم: أبو بكر وعمر، وأطرق أبو هريرة سمعه لحديثه صلوات الله وسلامه عليه، واستمتع فترة من الوقت بتلك الجلسة المباركة. لكنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام فاجأهم بأنْ قامَ من مجلسه، وانصرف بعيداً، فعلموا أنه ذهب لقضاء حاجة، وجلسوا ينتظرونه بلهفة.

وطالت غَيْبة النبي عليه الصلاة والسلام، وفزع الحضور لذلك، وكان أشدَّهم فزعاً أبو هريرة، فقام من بينهم مُسْرعاً، وقال لهم: أنا ذاهب وراءَ رسولِ الله ﷺ، فإني أخشى أن يكون قد حَدَثَ له أمر، ثم انطلق، وقام بقية الصحابة وراءه يطلبون النبي ﷺ.

اتَّجه أبو هريرة إلى بستان قريب من بساتين الأنصار ظنَّ أنَّ النبيَّ ﷺ قد دخله، وطاف حوله ليجد مدخلاً يدخِل منه فلم يجد، ثم طاف ثانية وثالثة فلم يجد إلا ثُغْرة صغيرة في جدار البستان يدخل منها نهر

صغير، فما كان منه إلا أن ضمّ بعضه إلى بعض وتحفّز، ثم دخل البستان، وجرى فيه يبحث عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فإذا بالنبي يفاجئه بطلعته البهيَّة، وسكَنَ جَزَعُ أبي هريرة، وقرأ عليه الصلاة والسلام ما كان في وجهه، وأراد تطييبَ خاطِرِه بأحبِّ الأمور إليه، بالكلمة يعلّمه إياها، فقال له: «أبو هريرة»؟ فأجاب: نعم يا رسول الله.

«ما شأنك»؟ فأجاب: (كنتَ بين أظهرنا فقمتَ، فأبطأتَ علينا، فخشيتُ أن تُقْتَطَع دوننا، ففزعنا، فكنتُ أوّلَ من فزع، فأتيتُ هذا الحائط ــ البستان ــ فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي).

وتبسَّم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وخلع نعليه وأعطاهما أبا هريرة ليذهبَ بهما علامةً على أنه وجد النبيَّ عليه الصلاة والسلام وقال له:

«من لقيتَ وَراءَ هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقناً بها قلبه، فبشِّره بالجنة».

وتضاعف فَرَحُ أبي هريرة، فقد فرح لعثوره على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وفرح بهذه الكلمة الطيبة التي حَمَّله إيَّاها، وترك النبيَّ وأسرع يريد أن يبشِّرَ إخوانَه. ولم تطل فرحة أبي هريرة فقد عكّرها عليه عمر بن الخطاب ــ وكان أول من لقيه من الناس ــ

فقد أراه أبو هريرة نَعْلَيْ النبي وبشَّره برؤيته إياه، ونقل إليه البشارة النبوية فقال له عمر: لا تَقُلها للناس يا أبا هريرة، وعُدْ معي إلى رسول الله ﷺ، ولكنَّ أبا هريرة لم يستجب لعمر وأراد استقبال الناس يبشِّرهم، فما كان من عمر إلا أن أمسكه وتململ أبو هريرة يريد أن يفلت من قبضته، فَضَرَبَه عمرُ على صدره ضربةً موجعةً، فتألَّم أبو هريرة، وعاد حزيناً إلى رسول الله، وشكا إليه صنيعَ عمر... ووصل عمر إلى رسول الله ﷺ وطابت نفسُه برؤيته، وبادَرَهُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام قائلاً: «يا عمر ما حملك على ما فعلت»؟ وكشف عمر عن سرٍّ عمله بقوله: (يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي ـ أبعثتَ أبا هريرة بنعليك، من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه، فبشِّره بالجنة؟) فقال: «نعم»، قال عمر: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتَّكِلَ النَّاسُ عليها، فخلِّهم يعملون. ورأى رسول الله أنَّ رأيَ عمر وجيه، فوافق عليه وقال له: «خلِّهم».

وطابت نفس أبي هريرة حين رأى النبيَّ عليه الصلاة والسلام قد وافق عمر، وتقدَّم إليه عمر فَمَسَح على صدره، وقال له: ما أردتُ إلا الخير يا أبا هريرة، فلا تجدْ عليَّ في نفسك، وتبسَّم أبو هريرة، وأخفى كلمةَ النبيِّ ﷺ في صدره، ولم يحدِّث بها إلا بعد وفاته خوفاً من أن يأثم إن هو كتمها.

لم تطل حياة النبي عليه الصلاة والسلام بعد حَجَّة الوداع، فلم يكتمل له صلوات الله وسلامه عليه حتى ثلاثة أشهر، فمرض واشتدَّت عليه آلام المرض وقاسىٰ من شدائده؛ ومنعه المرض من الصلاة بالناس، فأمر أبا بكر أن يصلِّيَ بهم فصلَّى لهم عِدَّة صلوات.

ووجد النبي عليه الصلاة والسلام من نفسِهِ نشاطاً في يوم من أيام مرضه، فخرج على أصحابه، فجلس على المنبر وحَمِد الله وأثنىٰ عليه وأوصاهم خيراً ثم قال لهم:

«أيها الناس، إنَّ عبداً من عباد الله قد خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله؛ فاختار ما عند الله».

وظنَّ كثير من الناس أنَّ رسول الله ﷺ يقصد رجلاً صالحاً، خيَّره الله هذا التخيير، وَفَطِنَ أبو بكر لما يقصده النبي عليه الصلاة والسلام، فبكى وقال له:

(بل نفديك بأنفسِنَا وأبنائِنا وأموالِنا).

وازدادتْ أحزانُ أبي هريرة بعد الذي سمع ورأى، وتعكَّر عليه صفوُ الحياة، فهو لم يجلس إلى رسول الله ﷺ منذ أيام، ولم يسعد برؤية وجهه الكريم إلا لماماً. وكانت كلمةُ أبي بكر

موضوعَ حديث أهل الصفّة عامّة يومهم، والتفت أبو هريرة إلى جاره أبي مُوَيْهِبَة ـ وكان من خَدَمِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له: أَوَ يعني رسولُ الله نفسَه في كلمته التي قالها على المنبر والتي أجابه عليها أبو بكر؟ فقال أبو مُوَيْهِبَة: ما أظنُّ إلا ذلك يا أبا هريرة، فقد بعثني رسولُ الله من أيام وقبل أن يمرض من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أُمرتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال:

«السلام عليكم يا أهل المقابر، لِيَهْنَأْ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتنُ كقطع الليل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها. الآخرة شرٌّ من الأولى».

ثم أقبل عليَّ فقال: «يا أبا مُوَيْهِبَة، إنِّي قد أُوتيت مفاتيحَ خزائنِ الدنيا والخلدَ فيها ثم الجنة، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة».

فقلت له: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيحَ خزائنِ الدنيا والخلدَ فيها ثم الجنة.

فقال لي: «لا والله ـ يا أبا مُوَيْهِبَة ـ لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

ثم استغفر لأهلِ البقيع وانصرَفَ، وقام من صباحه يشكو وجعه هذا.

- ١٧ -

حجب المرضُ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه، فحزنوا لذلك، وافتقده أهل الصُّفَّة وحَزِنوا لذلك حزناً شديداً ولا سيما أبو هريرة الذي تاقَتْ نفسُهُ كثيراً لرؤيته؛ فما كان منه إلّا أن تَجَرَّأ واستأذَنَ عليه، فَأَذِنَ له فَدَخَل وَسَلَّم وهو قائم، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام متساندٌ إلى صدر علي بن أبي طالب، ويدُهُ على صدره ضامّة إليه، وقد بسط عليه السلام رجليه، فدمعت عينا أبي هريرة للذي رأى، ونظر إليه النبيُّ نظرةَ حبٍّ وحنان وقال له: «ادنُ يا أبا هريرة»، فدنا، ثم قال له: «ادنُ يا أبا هريرة»، فدنا، ثم قال له: «ادنُ يا أبا هريرة»، فدنا حتى مسَّتْ أطرافُ أصابعه أصابعَ النبيِّ ﷺ، ثم قال له: «اجلس» فجلس، فقال له: «ادن مني طرفَ ثوبك» فمدَّ أبو هريرة ثوبه فأمسك بيده، ففتحه وأدناه من النبي ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «أوصيك يا أبا هريرة بخصالٍ لا تدعهنَّ ما بقيت» فقال أبو هريرة: أوصني ما شئت، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

«عليك بالغسل يوم الجمعة، والبكور إليها، ولا تَلْغُ ولا تَلْهُ،

وأوصيك بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه صيام الدهر، وأوصيك بركعتي الفجر لا تَدَعْهما، وإن صَلَّيْتَ الليلَ كلَّه فإنَّ فيها الرغائب»، ثم قال: «ضمّ إليك ثوبك» فضمَّ ثوبه إلى صدره، وقال: يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي ـ أُسِرُّ هذا أو أعلنه؟ فقال: «أعلِنْه يا أبا هريرة».

وخرج أبو هريرة من عند رسول الله ﷺ بعد أن قضى حاجة في نفسه، فقد كحَّل ناظريه برؤية النبي عليه الصلاة والسلام، واستفاد منه علماً جديداً، ولكنه ـ لهف نفسي ـ ما درى يومها أنها آخر كلمات يسمعها من فمِ النبوة المطهَّر!!.

ـ ١٨ ـ

فوجىء أهل الصفَّة ضحى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول عام ١١ من الهجرة بأقسى نبأٍ سمعوه في حياتهم، قيل لهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد توفي، فأظلمتْ الدنيا أمامهم، واسودَّ كلُّ شيء في ناظِرَيْهم، وَغَشِيَتْهُم الأحزان، وسَالَت الدُّموع غزيرةً من مآقِيهم، ولا تَسَلْ عن حزن أبي هريرة، فقد كان ذهابُ الدنيا بما فيها، وهلاكُ نفسِه والناسِ أجمعين؛ أهونَ عليه من وفاةِ رسول الله ﷺ، فانطوى على نفسه يبكي وينعى عليها ما فاتها من الخيرِ العميم بفَقْده عليه الصلاة والسلام.

وسرى نبأُ وفاته عليه الصلاة والسلام في المدينةِ سَرَيان النار في الهشيم، وأسرعَ النَّاسُ إلى المسجد، وتجمَّعوا وقد أصابهم ذهولٌ عظيم، وقامَ عمر في الناس يقول: إنَّ رسول الله ما مات، وكان قد أصابه أشدُّ مما أصاب الناس من هول الفاجعة!! وجاء الصدِّيق، فدخل على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، ونظر إليه وتيقَّن من وفاته، فقبَّلَه وقال له: بأبي أنت وأمي، ما أطْيَبَك حياً وميتاً، ثم خرج على الناس في المسجد فوقف بين ظهرانَيْهِم، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ الله تعالى يقول:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

وبعد تلاوة هاتين الآيتين قال لهم: (فمن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ومن كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات).

وأذهبت كلمةُ أبي بكر ذهولَ الناس، وفتحت عقولَهم على

المصيبة، وأيقنوا أنهم نُكِبُوا بالنكبة الكبرى، وأنهم قد فقدوا نبيَّهم عليه الصلاة والسلام.

* * *

وانتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام سنواتٌ أربع من الصحبة الكريمة، كانت أسعدَ سنيٍّ أبي هريرة رغم ما لقي فيها من ضَنْك الحياة... لقد أخذ في هذه السنوات عن النبي عليه الصلاة والسلام علماً جَمّاً مباركاً، فقد وقف حياته معه لطلب العلم، وَوَجَدَ فيه النبيُّ عليه الصلاة والسلام طالباً من خيرة طلَّاب العلم وأذكاهم وأكثرِهم رغبةً واجتهاداً، فأحبَّه وأفاضَ عليه من حنانه، واعتنىٰ به، ودَعَا له، وخصَّه ببعض العلم، فأصابَه بذلك توفيقٌ ـ أيَّما توفيقٍ ـ في الحفظ والفهم وكان آيةً من الآيات الباهرات، وعَلَماً من أعلام النبوة الظاهرات.

***

أميرُ البَحرَين

ـ ١ ـ

شُغِلَ الصحابةُ رضي الله عنهم بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ بأمر الردّة التي حَصَلَت في معظمِ جزيرة العرب، وبامتناع بعض القبائل عن دفع الزكاة لخليفة رسول الله ﷺ، وقد أبلى الصحابةُ بلاءً عظيماً في قتال المرتدين، واستُشهد عددٌ كبير منهم في المعارك الطاحنة التي دَارَت رَحاها على أرض الجزيرة، وكتب الله لهم النَّصرَ، وهزم دعاةَ الردّة، وعاد النَّاس إلى الإسلام من جديد.

كان أبو هريرة شاهداً وَمُشَارِكاً في تلك الأحداث، وقد رأى موقفَ أبـي بكر الصُّلْب في مسألة قتال المرتدين وقتال مانعي الزكاة، ومن قبل رأىٰ موقفه أيضاً في مسألة إمضاء بَعْث أسامة بن زيد، وذلك حين جَادَله بعض الصحابة، وأشاروا عليه بإمساك ذلك الجيش، وألّا يقاتل مانعي الزكاة، وأُعجب بعزيمته القويَّة يومَها وببطولته الخارقة، وبثباته ورباطة جأشه، وسمع منه هذه الكلمات التي سطّرها له التاريخ الإسلامي بأحرف من نور:

(أنا أحبس جيشاً بعثه رسول الله ﷺ؟! لقد اجترأتُ على أمرٍ عظيم!! والذي نفسي بيده لأن يَميلَ عليَّ العربُ أحبُّ إلي من أنْ أحبسَ جيشاً بعثه رسول الله ﷺ!!).

(والله لأقاتِلَنَّ من فرَّقَ بين الصَّلاةِ والزكاةِ، فإنَّ الزكاةَ حقُّ المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم عليه!!).

(إنه قد انقطع الوحي وتمَّ الدين، أوَ ينقص الدين وأنا حيّ)؟!.

وبعد القضاء على حركة الردة عرف الأصحاب جميعاً لأبي بكر موقفه العظيم في تلك الأحداث، وأقرُّوا له بالفقه العظيم وببُعْد النظر، وبالقوةِ النادرةِ والصَّلابةِ في الحق، ولم ينسَ أبو هريرة هذا الموقف العظيم للصدِّيق، فقد رواه لأجيالٍ من تلاميذه وبثَّه في الناس. قال يوماً لأصحابه وهو يذكر يوم الردّة:

(واللهِ الذي لا إله إلا هو؛ لولا أنَّ أبا بكرٍ استُخلِف ما عُبِدَ الله).

وكرَّرَ قَسَمَهُ هذا ثلاثاً.

وقال له قائل: مَهْ يا أبا هريرة!!.

وكشف لهم عن سرِّ قسمه العظيم فقال:

(إنَّ رسول الله ﷺ وَجَّه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام،

فلما نزل بذي خُشَب قُبِضَ رسول الله ﷺ، وارتـدت العرب حـول المدينة، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالـوا: يا أبـا بكر رُدَّ هؤلاء، تـوجِّـه هؤلاء إلى الـروم وقـد ارتـدَّت العـرب حـولَ المدينة؟ فقال:

والذي لا إله غيره، لو جرَّتْ الكلابُ بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّهه رسولُ الله، ولا حللتُ لواءً عقده رسولُ الله.

فوجَّه أسامةَ، فجعل لا يمرُّ بقبيل يريد الارتداد إلا قالوا: لولا أنَّ لهؤلاء قوةً ما خرج مثلُ هؤلاء من عندهم، ولكن نَدَعُهُم حتى يلقَوْا الروم، فلقُوا الرومَ فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام).

— ٢ —

وكان في جملة من ارتدَّ من العرب أهل البحـرين، فقد مـات مَلِكُهم الصالح (المنـذر بن ساوَىٰ) عَقِبَ وفـاة النبـي عليه الصـلاة والسـلام بقليـل، فقـام بـأمـرهم (المنـذر بن النعمـان بن المنـذر) الملقَّب بالغرور، وحَرَّضهم على الردة، فـارتدوا وقـالوا: (لـو كان محمدٌ نبِيًّاً ما مات). لكنَّ قـريةً من قـراهم اسمها (جُـواثى) بقيتْ على الإسلام، بفضل الرجل الشريف العاقل (الجارود بن المعلَّى) الذي قام في أهل هذه القرية فقال:

(يـا معشرَ عبـدِ القَيْس، إنّي سـائِلُكم عن أمرٍ فـأخبـروني إن علمتمـوه، ولا تجيبـوني إنْ لـم تعلمـوه)، فقـالــوا: سَـلْ. قــال: (أتعلمـون أنـه كـان للهِ أنبيـاءُ قبـلَ محمـدٍ)؟ قـالـوا: نعم. قـال: (تعلمونه أو تَرَوْنه)؟ قالوا: نعلمه. قال: (فما فعلوا)؟ قالوا: ماتوا. قال: (فإنَّ محمَّداً ﷺ مات كما ماتوا، وإني أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله)، فقالوا: ونحن نشهـد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمـداً رسول الله، وأنت أفضلنـا وسيدنـا، وثبتوا على الإسـلام، وتحمّلوا الحِصَار الشديد من المرتدين.

وأمـر أبو بكـر الصديق العـلاءَ بن الحَضْرمي بـالمسيـر لقتـال المرتدين في البحرين، واستعمله عامـلًا عليها، وخـرج العلاء من المدينة في ستةَ عشرَ راكباً، وجعل يستنفـر المسلمين في طريقـه، وصَحِبَه في هذا الوجْهِ أبو هريرة، وقاتلَ العلاءُ بمن معه المرتـدين في البحـرين ونصَرَهُ الله عليهم نصـراً مؤزَّراً، وعاد الإسـلام إليهـا من جديد.

وقد أبلىٰ أبو هريرة في هـذه الحربِ بـلاءً حَسَناً، ورأى فيهـا صـوراً من التـأييـدات الغيْبِيَّـة للمسلمين قــوَّتْ من يقينـه، وازداد إعجابُه بـالعلاء بن الحَضْـرمي، لِمَا رأى فيـه من التقْوى ولمـا رأىٰ من استجابةِ الله دعاءَه وتـأييـدِه لـه.

يقـول أبو هـريرة: (سِـرْنا معـه بفلاةٍ من الأرض، وليس معنـا

ماء، فشكَوْنا إليه، فقال: صلّوا ركعتين، ثم دعا، فإذا سحابةٌ مثلُ التُّرْس، ثم أرْخت عَزالِيَهَا[1]، فَسَقَيْنا واسْتَقَيْنا. وانتهينا إلى ساحلِ البحر، فقال: سَمُّوا اللهَ وتقحَّموا، فسمَّيْنا وتقحَّمْنا، فَعَبَرنا، فما بلَّ الماءُ أسافلَ أخفاف إبلنا).

وتحدَّثَ النَّاسُ يومَهَا عن ذلك الأمر المدْهِش الذي جَرى للمسلمينَ، وقَدِمَ على المسلمين راهبٌ من أهل هَجَر فأسلم، فقال له أبو هريرة: ما دعاك إلى الإسلام؟ فأجابه: خشِيتُ أن يمسخَني الله، لما شاهدت من الآيات.

وعاش أبو هريرة مع العلاء في البحرين مدَّة خلافة أبي بكر، يؤذِّنُ للنَّاس ويُقْرِئهم القرآنَ وَيُفَقِّهُهُم في الدين. وفوجىءَ المسلمونَ بوفاةِ الصدِّيق ولمَّا يمضي على خلافته كبيرُ وقت، ومات رضي الله عنه بعد أن وطَّد دعائمَ الإسلام من جديد، وحمَّل الأمانةَ من بعده لعمرَ بنِ الخطاب، فكان خيرَ خَلَف لخير سَلَف.

وفرح أبو هريرة باستخلاف عمر، فقد كان يراه أجدرَ الناسِ بالخلافة بعد الصدِّيق، وحدَّث عنه أهلَ البحرين فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نِعْمَ الرجلُ أبو بكر، نِعْم الرجلُ عمر»، وسمعته يقول: «إنَّ الله تعالى جعل الحقَّ على لسانِ عُمَرَ وقلبِه».

---

(١) أي انهمرت السَّماء بالمطر.

وجاء كتاب أمير المؤمنين عمر إلى العلاء بن الحَضْرمي يـأمره بالتحُّول إلى البَصْرة لِيَلِي عَمَلَها، وجاء في هذا الكتاب قول عمر: (سِرْ إلى عُتْبةَ بنِ غزوان فقد ولَّيْتُـك عمله، واعلم أنك تقـدم على رجـلٍ من المهاجـرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لم أعزِلْه ألَّا يكون عفيفاً صليبـاً شديـد البأس، ولكني ظَنَنْتُ أنَّـك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية منـه، فاعـرِفْ له حقَّـه، وقد ولَّيْتُ قبلك رجلاً فمات قبل أن يصل، فـإن يُرِدْ الله أن تليَ وُلِّيت، وإن يُرِدِ الله أن يَلِيَ عتبة فالخلق والأمر لله رب العالمين).

وخرج العلاء يريد البَصْرة، وخرج معه صديقُـه الأمينُ القديمُ أبو هريرة ونَفَرٌ من أصحابه، وساروا يريدون البصرة، ويشاءُ الله أن يموت العلاء وهم في الطريق، فدفنوه وحزنوا عليه حزناً شديداً.

يقول أبو هريرة: (كنَّـا على غير مـاء، فأبـدى الله لنا سحـابة، فمُـطِرْنا، فَغَسَّلناه، وحَفَرنـا لـه بسيـوفنـا، ولم نُلْحِـد لـه، ودفنَّـاه وَمَضَيْنا).

وجـاءهم رجل من أهـل تلك البلاد بعـد أن مضَوْا قليـلاً فقال لهم: إنَّ هــذه الأرض تلفظ المـوتى، فلو نقلتمــوه إلى ميـلٍ أو ميلين، إلى أرض تَقبل الموتى، وقـال قائـل: ما جـزاء صاحِبِنـا أن نعـرضَه للسبـاع تأكله، فـاجتمعوا على نَبْشِـه، فلما وصلوا إلى

مكـان دفنه لم يجـدوا العلاءَ فيـه، وإذا المكان ــ مدّ البصر ـ نـورٌ يتلألأ ، فأعادوا التراب، وعلموا أن جَسَدَ صاحبهم قد حفـظه الله تعالى بعنايته.

وكَبُر على أبـي هريرة أن يذهب إلى البصرة وقد مـات العلاء؛ فعاد إلى البحرين يؤذِّنُ للنَّاس، ثم كتب له عمر (أن يؤمَّ الناسَ في الصلاة ويقضيَ لهم في خصومـاتهم). وجاء أميـرٌ جديـد للبحرين هـو (قُدامـة بن مظعـون) فقرَّب إليـه أبا هـريـرة، وَجَعَـل يستشيـرُه في أموره، لِمَا كان يتمتَّعُ به من علمٍ وفقهٍ وتقوى.

واشتاق أبو هريرة إلىٰ مدينةِ رسولِ الله ﷺ، فقد طـالت غَيْبَتُه عنهـا هذه المـرَّة، اشتاقَ للوقـوفِ أمامِ الحجـرة الشريفـةِ والتسليم على رســول الله ﷺ ، واشتـاق إلى أُمِّــه التي تـركهـا هنـاك في المدينة، فاستأذنَ أميرَ البحرينِ بالشخوصِ[1] إلى المـدينة، فـأذن له، فعاد إليها سريعاً يريد أن يقضيَ منها لُبَانته[2]. وَقَـدِمَ على أمير المؤمنين فَسَلَّمَ عليه وأطلعه على أحـوال البحرين، وذكـر له سببَ مجيئـه، ثم رجاه أن يُعفيَـهُ من عمله في البحـرين، وأن يعيشَ إلى جواره في المدينة، فأجابه عمر إلى ذلك.

---

(١) أي بالعودة والرجوع إليها.

(٢) أي حاجته ونَهْمَته.

ـ ٣ ـ

سَعِدَ أبو هريرة من جديد بالعيش في مدينة النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فقد كان هاجَرَ من بلاد اليمن ليعيش في هذه المدينة الطيِّبة، وإنه ليجد بعد هجرته إليها وحشةً كلما ابتعد عنها، وإنه ليجد الأُنسَ والسُّرور فيها.

واتَّخَذ أبو هريرة لنفسه بيتاً غيرَ بيته القديم، فلم تبقَ هناك صُفَّة، فقد تفرَّق أهلُها بعد موتِ من اجتمعت قلوبُهم عليه، تفرَّقوا في البلاد يجاهدونَ في سبيل الله وينشرون الإسلام، ولم تبقَ عند أبي هريرة إلا الذكريات الجميلة الأليمة لأيام الصُّفَّة ولحياته فيها، أما رسول الله ﷺ فقد كان يقضي حقَّه منه بالوقوف كلَّ يوم أمام قبره الشريف والسلام عليه.

وكانت لا تفوت أبا هريرة صلاةٌ خلفَ أمير المؤمنين عمر، فقد كان يحبُّه، وكان كثيراً ما يُرَىٰ في مجالسه يستمع ويشير، وكان عمر يَعرِفُ له حقَّه ويرى أنه قد أُوتي علماً غزيراً.

وفُتِحَت البلادُ الكثيرة في عهدِ عمر، وتوسَّعَتْ رقعة العالم الإسلاميِّ، وَكَثُرَ عَدَدُ مَن اعتنَقَ الإسلامَ؛ فاحتاج عمر إلىٰ العمَّال الأمناء الفقهاء ليديروا له شؤونَ الأمصار. ودعا إليه نَفَراً من أولئك الذين يثق بهم، وقال لهم:

(إذا لم تُعينوني، فمن يعينني؟!) فقالوا: نحن نعينك.

وتوجَّه عمر ـ أوّلَ ما توجه ـ إلى أبـي هريرة، وقـال له: (يـا أبا هريرة ائت البحرين وهجَرَ أنت العام). ثم أمَّر عدداً آخـر منهم على الأمصار الأخرى، وزوَّدَهم بنصائحه وأوامره، واستحثَّهم على الإسراع بالخروج لأعمالهم.

وأزعـجَ هـذا التكليف أبـا هـريـرة، فهـو يـريـد أن يعيشَ في المدينة، وأن يحصِّل بقيَّةَ العلم النبويِّ الذي عنـد كبار الصحـابة، ثم يتفرَّغ لتعليم الناس، وفكَّـر في أن يطلب من عمـر أن يُعفيَهُ من هذا الأمر، ولكنـه خشيه، ووجـد أنه لا بـد من طاعتـه ولو أنـه كَرِهَ هذا العمل الذي أمره به، فهو قد بايَع النبـيَّ عليه الصـلاة والسلام على السمع والطاعة في المنْشَط والمكْرَهِ.

وتـوجَّه أبـو هريـرة من جديـد إلى البحـرين، واستقبله أهلُهـا أحسنَ استقبـال، فقد كـانوا عـرفوه من قبـل وأحبُّـوه لحسن خُلُقـه وعظيم علمه وَتَقْـواه. وعاشَ أبـو هريـرة في تلك البلاد أميـراً لها، يحفظ ثغـورَهـا، ويصلي بـأهلهـا، ويقضي بينهم، ويعـلِّمهـم الإسلام، ويرسم لهم بسلوكه منهجاً يَأْتَسُوْن به.

وكـان دائمَ الاتّصال بـالخليفة في المـدينة، فكـان يسألـه عن الأمور التي يُفتي فيها، ليرىٰ رأيَه في ذلك، وكان رأيُ عمـر يوافق دائماً رأيه، وكان موفَّقاً في أجوبته مصيباً في أحكـامه، مسـدَّداً في كلامه وأفعاله.

وكان هَمُّ أبـي هريـرة في عمله في البحرين أن يـرعى الأمانـة التي وُكِّلت إليه، فقام بهـا حقَّ القيام، وكـان من خيرة عمَّـال عمر استقامةً وعدلاً.

بَيْدَ أنَّ عمر رضي الله عنـه كان شـديدَ المـراقبةِ لعمَّـاله، يبثُّ العيونَ في الأمصار تأتيه بالأخبار عن عُمَّاله وسيـرتهم في رَعِيَّتِهِم، كـان لا يـرضىٰ لهم أن يـزيغـوا عن الحقِّ قِيـدَ شعـرة، ويـريـدهم أن يكونوا دائمي اليقـظة والسَّهَر على راحـة الناس، يصـرفون كـلَّ وقتهم لخـدمة النَّـاس، ولا يصرفهم صـارفٌ عن عملهم من كسبٍ أو تجـارة، وكان يُغضبـه أن يعملَ العـامـل في التجـارة والكسب، ويتخـوَّفُ على عُمَّـالــه أن يكـون النــاس راعَـوْهم في تجــارتهم ومكاسبهم لأجلِ الإمارة، فكانَ يـأخذ منهم أربـاحهـم ويضعُها في بيت المـال لتبْرأ ذممهم، ثم يعـطيهم بعـد ذلـك من بيت المـال، بحسبِ ما يرى من استحقاقهم، فيكون حِلًّا لهم بلا شبهة.

وجاءه خبرٌ أنَّ أبـا هريـرة قد كَثُـرَ مالُـه، فأرسـلَ إليه أن اقْـدِمْ عليَّ، فَقَدِمَ على عمرَ من البحرين، و(أتاه بـأربعمائـة ألف، فقال له: أظلمتَ أحداً؟ قال: لا. أخذتَ شيئاً بغير حقه؟ قال: لا. فما جئتَ به لنفسِك؟ قال: عشرين ألفـاً. من أينَ أَصَبْتَها؟ قـال: كنت أتَّجِرُ. فقال عمر: انظر رأسَ مالك ورزقَـك، فخُذْه واجعـل الآخر في بيت المال).

وأحـزنَ أبا هـريرة مـا أمره بـه أميرُ المؤمنين، فـالمال مـالـه، ولم يكسبه إلا من طريقٍ مشـروع، فجعل يجـادل عمر في ذلـك، فغضِبَ عمر وقال له: (يا عدوَّ الله وعدوَّ كتـابه، أسـرقتَ مال الله؟ وأجابه أبـو هريـرة بهدوءٍ وَرَوِيَّـةٍ: لستُ بعدوٍّ الله ولا عـدوٍّ كتابـه، ولكني عدوٌّ من عاداهما، ولم أسرق مالَ الله).

وسأله عمر ثانيةً: من أين اجتمع لك المال؟

فقال أبو هـريرة: خيلي تنـاسلت، وعطائي تـلاحق، وسهامي تلاحقت.

ولم يرضَ عمر بهذا الجواب[1]، فقبضها من أبي هريرة، وترك له رأسَ مالِهِ ورزقَه. وانصرفَ أبو هريرة حزيناً إلى أمِّه، فحكى لها ما جرى لـه مع عمـر، فما زادت علىٰ أن قـالت: غَفَرَ اللَّهُ لعمـر. وأعجبت هـذه الكلمةُ أبـا هريـرة، وقام من غـدٍ يقـول بعـد صـلاة الفجر: اللهم اغفِر لأمير المؤمنين. وعزَّى نفسَه بما كان يفعله عمر مع سائرِ العمَّال الذين كان يـرى كثرةَ أمـوالهم، فهو لم يفعـل هذا معه وحدَه، بل كان هذا الفعل سياسةً لهـذا الخليفة، كانت سياسةً قائمةً على الاحتياط، فكان يقاسم عُمَّالـه أموالَهم خـوفاً أن يـدخلَ

(١) تقول رواية ساقها الحافظ ابن حجر في الإصابة عن عبد الرزاق الصنعاني المحدِّث الكبير صاحب المصنَّف: إن عمر نـظر ــ فيما بعـد ــ في كلام أبـي هريرة، وأجرى تحقيقاً، فوجد الأمر كما قال أبو هريرة.

عليهم مـالٌ فيه شبهـة، لكنه رضيَ الله عنـه كان يَجْبُـرُ خَاطِـرَهم، فكان يأخذُ منهم ثم يعطيهم أفضلَ منه.

وفرح أبو هـريرة بعـودته إلى المـدينة من جـديد، وعـزم على أن يستقرَّ بها، وأن ينصرف انصرافاً تامًّاً إلى العلم، ولكنه ــ وبعـد وقت قصير ــ فُوجِىءَ بأمير المؤمنين عمر يدعوه للعمل ثـانيةً، بَيْـد أنه اعتذر هذه المرة اعتذاراً قَبِلَه منه أمير المؤمنين.

يقول أبو هريرة: (... ثم قال لي عمر بعد ذلك:

ألا تعمل؟ قلت: لا.

قال: قد عَمِلَ مَنْ هو خيرٌ منك: يوسف.

فقلت: إنَّ يوسُفَ نبيٌّ ابنُ نبيٍّ، وأنا ابن أُمَيْمة. وأخشى ثلاثاً واثنتين.

قال: فهلّا قلت خمساً؟

قلت: أخشى أن أقول بغير علم، وأحكمَ بغيـر حِلْم، وأخشى أن يُضرب ظهري، ويُشْتَمَ عرضي، ويُنْتزعَ مالي».

وهكذا تخلَّص أبو هـريرة بهـذا الاعتذار اللبق من العمـل في الأمصار، وفرَّغ نفسَه ليكون معلِّماً للمسلمين.

***

الصّحابيّ المعلّم

ـ ١ ـ

عاشَ أبو هريرة بعدَ رسولِ الله ﷺ قريباً من خمسين سَنَة، كان شغله الشاغل فيها تعلِيمَ الناس، وتفقيهَهُم في دينهم، وتحديثَهم بما حفظه عن رسول الله ﷺ خلال سِنِيِّ الصُّحبة، وبما حفظه عن باقي الأصحاب في حياة النبيِّ وبعد وفاته. لم يكن يُؤْثِر على هذا العمل عملاً آخر، فكان بحق (الصحابي المعلم). ولقد علَّم جيلاً عظيماً من الناس، فكان من تلاميذه أعلام التابعين وأئمة الإسلام في النصف الثاني من القرن الأول؛ بالإضافة إلى من استمع منه من عامة الناس وهم يُعَدُّون بالألوف.

ولقد عاصرَ أبو هريرة فترةَ الخلافة الراشدة كلَّها ومعظمَ خلافة معاوية، وطوَّف في بلادٍ إسلامية عديدة، وزار كبرىٰ المدن الإسلامية في زمانه، لكن مركز إقامته الأساسي كان مدينةَ رسول الله ﷺ، فهي المكان الذي أحبَّه وعاش فيه معظمَ عُمُرِهِ منذ

أن هاجرَ وإلى أن لقيَ وَجْهَ ربه، هناك كان مغداه ورواحه رضي الله عنه.

وفي عهد عمر ــ وبعد استقراره بالمدينة ــ بدأ يحدِّث الناسَ بحديث رسول الله ﷺ، وأخذَ يقول للنَّاس: سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، وحدَّثني رسول الله ﷺ بكذا وكذا، وقال رسول الله كذا وكذا.

ورأىٰ عمرُ أبا هريرة يحدِّثُ النَّاسَ وشَعَرَ أنه دأب علىٰ هذا الأمر، فقال له: يا أبا هريرة أقِلَّ الحديث عن رسول الله[1].

بَيْدَ أن أبا هريرة ما كان يملك السكوت، فهو يرى أنَّ هذا العلم الذي يحمله أمانةٌ يجب تبليغُها، وكان يرى أنَّ فرضاً على من يعلم من أمور الدين شيئاً أن يعلِّمَه لغيره، فَدَأبَ على تحديثه ولم ينزجر. وَتَكَرَّرَ نهيُ عمرَ له، لكنه لم ينته، مما اضطر عمرُ لأن

---

(١) كان عمر رضي الله عنه قد أَمَر عدداً من الصحابة بهذا الأمر، فقال لهم: (أَقِلُّوا الحديثَ عن رسول الله ﷺ). وَزَجَر غيرَ واحدٍ من الصحابة عن بثِّ الحديث، وكان هذا مذهباً له، فهو لا يحبُّ أن يُشغلَ النَّاسُ عن القرآن الكريم، ويخشى أن تَضَع الناسُ أحاديثَ رسول الله على غير مواضعها. وبالنسبة لأبي هريرة فقد خَشِيَ أن يقع في أحاديثه بعضُ الغلط بسبب إكثاره منه.

يـزجره زجـرةً قويَّـةً، فقـد قـال لـه يـومـاً: (لَتَتْـرُكَنَّ الحـديثَ عن رسول الله ﷺ، أو لأُلْحِقَنَّك بأرضِ دَوْس).

وأقلَّ أبو هـريرة الحـديثَ عن رسول الله ﷺ خشيـةً من عمر، لكنه ما انقطع عنه، ومضىٰ على ذلك زمن، وأحبَّ عمر أن يحـذِّر أبا هريرة من عاقبة ما قد يقع فيـه المحدِّث من خـطأ أو كذب غيـر مقصود على رسول الله في الآخرة، وأحبَّ أن يشعره بأنه إنما زَجَرَه لأمورٍ منها هذا الأمر، فهو يشفق عليه أن يأثمَ ويعاقَبَ في الآخرة، فـأرسل إليـه وقال لـه: (يـا أبـا هـريـرة، كنتَ معنـا يـوم كنَّـا مـع رسول الله ﷺ في بيت فلان)؟.

وأجـابه أبـو هريـرة على الفـور: نعم، وأنـا أعلم لِمَ تسـألني عن ذلك.

وقال عمر: ولِمَ سألتك؟.

فقال أبو هريرة: إنَّ رسول الله ﷺ قال يومئذ: «من كَذَبَ عَليَّ متعمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه من النار».

وأدهشَ عمـرَ جوابُ أبـي هـريرة، وتـأكَّد لـه حفظُه وصيـانتـه لدينه، وقال له يومها:

(أمَّا إذاً فاذهب فحدِّث).

وزاد من ثقةِ عمر بأبي هريرة ما لَمَسَه من حفظِه دون غيره في مناسباتٍ عديدة:

● فقد مرَّ عمرُ يوماً (بحسَّان وهو ينشدُ الشِّعر في المسجد فلحظ عليه، فقال: قد كنت أنشد وفيه خيرٌ منك، ثم التفت حَسَّان إلى أبي هريرة فقال: أَنْشُدُك بالله، أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: أَجِبْ عنّي، اللهم أَيِّدْه بروح القُدُس؟.

وأدلى أبو هريرة بشهادته فقال: اللهم نعم. وما وسع عمر إلا قبولها).

● وأُتِيَ عمرُ بامرأةٍ تشِمُ، فقام فقال: أنشدكم بالله، من سمع من النبيِّ ﷺ في الوشم[1]؟.

ولم يجبه أحدٌ غيرَ أبي هريرة، فقام فقال: يا أميرَ المؤمنين أنا سمعت، قال: ما سمعتَ؟ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا تَشِمَنَّ ولا تَسْتَوْشِمَنَّ».

● ومرة ثالثة: (أخذت الناس ريحٌ بطريق مكة، وعمر بن الخطاب حَاجٌّ، فاشتدَّت عليهم، فقال عمر لمن حوله: من يحدثنا

---

(١) الوشم: أن يُغرز الجلد بإبرة، ثم يُحشى بكحل أو نِيل، فيزرقّ أثره أو يخضرّ.

عن الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئاً. فبلغ أبا هريرة الذي سأل عنه عمرُ من ذلك، فاستحثَّ راحلته حتى أدركه فقال: يا أمير المؤمنين، أُخبرتُ أنك سألتَ عن الريح، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، وسلوا اللهَ خيرَها، واستعيذوا من شرِّها»).

ولم يكن حِرْصُ أبي هريرة على التعلُّم بأقلَّ من حِرْصِه على التعليم، فقد لَزِمَ أميرَ المؤمنين عمرَ وغيرَه من كبار الصحابة، وأخذَ ما عندهم من الأحاديثِ مِمَّا ليس عنده، وأخذ عنهم فقههم، بل أخذَ عن صغار الصحابة كأسامةَ بنِ زيدٍ وعائشة، واتَّجه إلى الصحابيِّ الإمامِ الجليل: أُبيِّ بن كعب، فأخذ عنه بقيَّة القرآن ممَّا لم يحفظه في زمن النبيِّ ﷺ، ثم عَرَضَ على أُبيٍّ سائرَ القرآن، وأخذ عنه قراءَتَه، وَنَشَرها فيما بعد في تلاميذه.

— ٢ —

وتوفيَ عمرُ رضي الله عنه، وَحَزِنَ أبو هريرة عليه حزناً شديداً، لما كان يرى فيه من مناصحةِ الإسلام والمسلمين، وَمِنَ الدَّأب على إعزاز الدين وخدمة الرعيَّة، واختار المسلمون عثمانَ بن عفان، وفرحوا بخليفتهم الجديد، وامتدَّ انتشار الإسلام

في زمانه وعاش النَّاس زمـاناً من خـلافته في بُحْبُـوحة عيش، وفي أمنٍ واطمئنانٍ في ظلٍّ خليفةٍ رحيم كريم.

ولم يجد أبو هريرة من الخليفةِ الجديـد ما وَجَـدَه من عمر من تضييق عليه في التحديثِ، فقد رأىٰ عثمان أنَّ جيلاً جديداً قد نشأ في المسلمين، وأنَّ أممـاً قد أسلمت، وهؤلاء وأولئـك يحتـاجـون إلى من يعلِّمُهُم دينَهم، ويبلِّغُهُم حديثَ رسولهم، وكان يعلم مدىٰ تمكّن أبـي هـريرة من الحفظ، لـذا فَسَحَ أمـامه المجـالَ ليحـدِّث الناسَ كما يحلو له.

وكـان أبو هـريـرة ينتـظر هـذه الفـرصـة، فقـامَ في المسلمين يحدِّثهم كثيراً، ويروي لهم سننَ رسول الله ﷺ التي سمعهـا والتي رآها، ويحكي لهم أموراً كثيرة جَرَتْ على عهدِ النبـيِّ ﷺ؛ يرويها وكـأنَّه يشـاهدهـا بأمِّ عينيـه ساعـةَ تحديثِه. وقـام يُقْـرِئُهم القـرآنَ الكـريمَ، ويـروي لهم الـروايـاتِ في تفسيـره، بـل جعـلَ النـاسُ يستفتونه فيفتيهم، وتُرفع فتـاواه للخليفة فَيُقـرُّه عليها، وشـارَكه في هذا عددٌ قليل من الصَّحَابة، لكنّ نشاطَهم لم يكن كنشاطه. وبقي رحمـه الله تعالى يسلك هـذا الطريق، ويعمـل في هـذا المجـال، ويكثـر الجلوس في المسجـد لهـذا الأمـر إلىٰ أن لقيَ وَجْــهَ ربِّـه عَزَّ وجلّ.

كان يحدِّث سائرَ الناس: مَنْ عَرَف وَمَنْ لَمْ يَعْرِف، الكبار والصغار، كان يحدِّث في المسجد، والسوق، والبساتين، والسفر، والحَضَر، وكان يرغِّب الناسَ ترغيباً لطيفاً في طلب العلم، ويُغريهم بذلك بأساليب جميلة.

ذكروا أنه (مرَّ بسوقِ المدينة، فَوَقَف عليها فقال: يا أهلَ السُّوق ما أَعْجَزَكم! قالوا: وَمَا ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراثُ رسولِ الله ﷺ يُقَسَّم وأنتم هَاهُنَا، ألا تذهبون فتأخذونَ نَصيبَكُم منه؟! قالوا: وأينَ هو؟ قال: في المسجد. فَخَرجوا سِرَاعاً، ووقفَ أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لَكم؟ قالوا: يا أبا هريرة، أتينا المسجدَ فدخلنا، فلم نَرَ فيه شيئاً يُقَسَّم! فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى. رأينا قوماً يصلون، وقوماً يقرأون القرآن، وقوماً يتذاكرون الحلالَ والحرام. فقال لهم أبو هريرة: ويحكم! فذلك ميراثُ محمد ﷺ).

وكان يجد في التحديث مجالاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيحدِّث ليأمرَ وينهى. ذكروا أنه (مرَّ عليه رجلٌ من بني عامر، فقيل: هذا من أكثرِ الناس مالاً، فَدَعاه أبو هريرة، فسأله عن ذلك، فقال: نعم، لي مائة حمراء، ولي مائة أدماء، ولي كذا وكذا من الغَنَم. فقال أبو هريرة: إيَّاك وأخفافَ الإبل، إياك

وأظـلافَ الغنم، إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقـول: «ما مِنْ رجـل يكـون لـه إبـل لا يؤدي حقَّها في نجـدتهـا ورسْلِهـا[1]، عُسـرِهـا ويُسرِها؛ إلا بَرَزَ له بقاعٍ قرقـر، فجاءتـه كأعـدِّ ما تكـون، وأسرِّه وأسمَنِـه، فتطؤه بـأخفافهـا، وتنطحـه بقرونهـا، كلما جـاءت عليـه أخراها أُعيـدت أولاها، في يـومٍ كان مقـداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضىٰ بين النـاس، فيُرىٰ سبيلُه. ومـا من عبدٍ يكـون له بقـرٌ لا يؤدي حقهـا في نجدتهـا ورسْلِها، عُسـرِها ويُسـرِها؛ إلا بـرز له بقاع قرقر، كأعدِّ ما تكون وأسرِّه وأسمنِه وأعظمِه، فتطؤه بـأظلافهـا وتنطحه بقرونها، كلما جازت عليه أولاها أعيدت عليه أُخراها، في يـوم كان مقـداره خمسين ألف سنة، حتى يقضيَ اللهُ بينَ النـاس، فيُرىٰ سبيله»).

وقال له أحـد الحضور: ومـا حقُّ الإبل يـا أبا هـريرة؟ فقـال: يعطي الكريمة، ويمنح الغـزيرة، ويفقـر الظهـر، ويطرق الفحـل، ويسقي اللبن.

وأقبـل الناس على أبـي هـريرة، وكَثُـرَ طُلَّابـه، وانصرف إليـه التابعون مِمَّن لم يَرَوْا رسولَ الله ﷺ، وتعـزَّوْا عن رؤيته بسمـاعهم كـلامَـه، يـرويـه هـذا التلميـذُ الـذكيُّ النبيـل، والمعلِّمُ الألمعيُّ الدؤوب.

---

(١) أي شدّتها ورخائها.

ـ ٣ ـ

عَرَفَ الخليفةُ الثالثُ لأبـي هريرةَ حقَّه، وسرَّه هذا الأمرُ الذي اضطلع به، فأكرَمه وأجزلَ له العطاء، وتغيَّرت الحال بأبـي هريرة، فقد انتقل من فقر مُدْقِع[1] وجوع مُجْهِـد إلى يَسَار وشَبَـع. ثم لقد أنعم الله عليه بنعمةٍ أخرى، هي نعمة الـزواجِ، ولقد كـانت زوجتُه هي تلك المـرأة المازنيـة الشريفـة: بُسْرة بنتُ غـزوان، التي عمل أجيراً لها في فترةٍ من العهدِ النبوي. أجل لقد أصبحت ابنة غزوان زوجةً لأبـي هريرة، فَسَعِد بها، واطمأنَّ قلبُه، وحصَّنَ نفسه.

وانصـرف أبو هـريرة يؤدِّي حقَّ الشكـر لله تعالى على مـا أنعم عليـه وبدَّل من حـالته؛ واجتهـدَ في أداءِ حقِّ الشكر: عبـادةً وذكراً وحمداً وتحدُّثاً بنعمةِ اللهِ تعالى.

دخل عليه يوماً تلميذٌ من أبرز تلاميذه هـو محمد بن سيـرين، فَجَلَس عنـده، وبينما همـا يتحدَّثـان، إذا بأبـي هـريرة يُخـرِجُ من جَيْبِه خرقَة كَتَّان وتمخَّط بها، ثم يقول متعجِّباً من صنيعه:

بَخٍ بَخٍ!! أبو هريرة يتمخَّط في الكَتَّان!.

فقال: والله ـ يا ابنَ سيرين ـ لقد رأيتني أُصرَعُ بين منبر

---

(١) أي شديد مُذِلّ.

رسـول الله ﷺ وحجرة عـائشـة، فيقــال: مجنـون، ومــا بـي إلا الجـوع. ثم يشير إلى ثـوب ممشَّقٍ كـان يَلْبَسُـه ويقـول: ألا تنـظر يا ابنَ سيرين إلى ما أَلْبَسُ!! ثم يُكثر الحمد للهِ تعالى.

وهكذا عاش أبو هريرة في زمنِ الخليفةِ الراشد عثمان في أمن وطمـأنينة، وفي يُسْـرٍ وهناءةٍ، وانصـرفَ بكلِّيَّته إلى تعليم النـاس، رائدُه في ذلك قولته المشهـورة: (بابٌ من العلم نتعلّمـه أحب إلينا من ألفِ رَكعـةٍ تطوعـاً، وبابٌ من العلم نعلِّمـه ـ عَمِلنـا بـه أو لم نعمل به ـ أحبُّ إلينا من مائة ركعة تطوعاً)؛ سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «إذا جاء طـالبَ العلم الموتُ وهـو على هذه الحـال مـات وهو شهيد».

بَيْدَ أن الأمور ـ وَاحَسْرَتاه ـ لم تبقَ كما كان يشتهي أبو هريرة وسـائرُ المسلمين، فقـد جـدَّت في المجتمـع الإسـلامي أحـداثٌ خـطيرة، ولقـد فُتِحَ بـابُ الفتنة الـذي كـان مُغلَقـاً، ونَشِطَ أعـداءُ الإسـلام في إيقادِ نـارِ الفتنة، وتـولَّى كِبْر هـذا الأمـر يهـوديٌّ زَعَم الإسلام هـو (عبد الله بن سَبَأ).

فلقد استطاعَ هذا العدوُّ الماكر أن يجمـعَ الرَّعـاع من الأمصار ويرسلَهم إلى المدينةِ المنوَّرة، وهنـاك حاصـروا الخليفةَ الصَّـالح، وأرادوه على خلع نفسـه، فـأبى عليهم، فشـدَّدُوا عليـه الحِصَـار،

فقويَ رفضُه لمطلبهم، وأذهلت الأحداثُ أهلَ المدينة، وفَزِعَت طائفةٌ لدينهم ولخليفتهم، وجاءَ رجالٌ إلى عثمان ينصرونه على أعدائِه وكان في مقدمتهم: أبو هريرة وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين ابنا علي، وآخرون.

وأقبل أبو هريرة، والناس مُحْجِمون عن الدار إلا أولئك العصبة، فدسَّروا ـ دفعوا وتقدّموا ـ فاستقتلوا، فقام معهم، وقال: أنا أُسوتكم. وقال: هذا يومٌ طابَ الضَّرْبُ، ونادى: يا قوم، مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؟!.

ودخل أبو هريرة الدار، فاستأذن عثمانَ في الكلام، فأَذِنَ له، فقام فَحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: إني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنكم تلقَوْن بعدي فِتْنَةً واختلافاً»، فقال له قائل من الناس: فَمَن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه»، وهو يشير إلى عثمان بذلك، ثم تقدَّم إلى عثمان رضي الله عنه، فقال له: اليوم طابَ الضَّرْبُ معك. قتلوا رجلًا منا.

وَرَفَض عثمان رضي الله عنه ذلك وقال له: أَعْزِمُ عليك لَتَخْرُجَنَّ. عزمتُ عليك يا أبا هريرة إلَّا رَمَيْتَ بسيفك، فإنَّما تُرادُ نفسي، وسأقي المؤمنينَ اليوم بنفسي. أَيَسُرُّك أن تقتلَ الناس جميعاً وإياي؟! فقال أبو هريرة: لا. فقال عثمان: فإنَّك واللهِ إنْ قتلتَ رجلًا واحداً، فكأنما قُتل الناس جميعاً.

ولبث أبو هريرة متقلِّداً سيفَه حتى نهاه عثمان، فرجع ولم يقاتل، ثم كانت الفجيعةُ الكبرى، فاقتحَمتِ الأوغادُ دارَ الخليفةِ، وقتلوه رضي الله عنه. وفُجِعَ المسلمون بعثمان وفُجِعَ به أبو هريرة، وبكاهُ طويلاً، وظلَّ يبكيه كلما ذكر ما صنع النَّاسُ به، حتى يسمَعَه السامع يقول: (هاه، هاه) ينْتَحِب.

واختار المسلمون عليَّ بن أبي طالب خليفةً لهم وبايعوه، وبايعه أبو هريرة، وانصرفَ هذا الخليفةُ الجليلُ لِيَرْأَبَ الصَّدْع، ولكنَّ الفتنةَ كانت كبيرةً، وكانت عمياء، فشَغَلت المسلمين في سائرِ أمصارهم، وَقَسَمَتْهُم على أنفسهم، واقتتلوا وَسَالتِ الدِّمَاءُ، وكانت وقعةُ الجَمَل، ثم وقعةُ صِفِّين.

أما أبو هريرة، فقد لزم بيته ولم يحضر تلك الأحداث ولا شارك فيها، ورأىٰ ببصيرته النافذة أنَّ الاعتزالَ أوْلى. وكفَّه عن ذلك الحديثُ الذي سمعه من رسول الله ﷺ: «ستكون فِتَنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، وَمَنْ يَسْتَشْرِف لها تَسْتَشْرِفه، وَمَن وَجَدَ ملجأً أو مُعاذاً فليعذْ به». وكان هذا الحديث دستوره في الفتنة، فَفَضَّل القعود، وأوىٰ إلى بيته وَلَزِمَ مدينةَ رسولِ الله ﷺ، وشاركه في ذلك عددٌ من كبارِ الصحابة من أمثال: سعد بن أبي وقاص، وابنِ عمر، وعِمْرانَ بنِ حُصَيْن، وأبي بَكْرة الثَّقفي.

وأتتْ الفتنة على الخليفة الراشد الرابع ـ علي بن أبي طالب ـ فماتَ شهيداً رضي الله عنه، ثم تنازَل ابنُه الحسن لمعاوية عن الخلافة، والْتَأَمَ شملُ المسلمين، واجتمعت كلمتُهم على معاوية، وكان عامُ أربعين للهجرة عامَ الجماعة ـ كما سَمَّاه المسلمون ـ. وَسَلِمَ أبو هريرة من الولوج في تلك الفتنة الكبرى، وعاد لِدَأْبِهِ السَّابق، ينشرُ العلمَ والحديثَ والفقهَ في مدينةِ الرسول ﷺ.

ـ ٤ ـ

كان نجمُ أبي هريرة يتألَّق في المسلمين كلما تقدَّم به السنّ، وكان علمه ينتشر في أمصار الإسلام، وكان طلّابه يكثر عددُهُم ويزدادون يوماً عن يوم، ورأىٰ هو أنَّ في الإكثار من الحديث وحلقات العلم ما يشغل الناس عمَّا جرى لهم، لذا ضاعَفَ من نشاطه، وكثر تحديثه، وصار يقوم يومَ الجمعة من كل أسبوع فيحدِّث حديثاً عاماً، فيقبض على رُمَّانَتَي المنبر وهو قائم ويقول: حدَّثنا أبو القاسم ﷺ، الصادق المصدوق، فلا يزال يحدِّث حتى يخرج خطيب الجمعة، فيجلس.

وتكرَّر ذلك من أبي هريرة، وصار يقوم كل أسبوع في هذه الساعة فيحدِّث الناس، وكانوا يستمعون منه كلَّ مرة أحاديثَ

جديدة، وكانوا يُدهشون لحفظه ومرونة لسانه، حتى لكأنّه يقرأ من كتابٍ أمامه، وَبَرَز في الناس كأوّلِ حافظٍ في الصحابة رضي الله عنهم، وتهامَسَ الناسُ فيما بينهم:

من أين لأبي هريرة هذه الأحاديث الكثيرة وهو لم يصْحَبِ النبيَّ إلا أربعَ سنوات؟! إنَّ الذين صحبوه سنين طويلة لم يَرْوُوا عنه هذه المروياتِ الكثيرة!!.

وَفَطِنَ أبو هريرة لهذه الهَمَسات، فَجَعَل يقول في ابتداء تحديثه: قال رسول الله الصَّادق المصدوق، أبو القاسم ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار»، ثم يقول: حَدَّثنا رسول الله ﷺ كذا وكذا، ويَسْرُد الأحاديث.

وشَهِدَ لأبي هريرة عددٌ من الصحابة أنه لازم النبيَّ طويلاً وأنه سمع ما لم يسمعوا... وشَهِدَ له الإمام الجليل، جامع القرآن زيدُ بن ثابت بأنَّ النبيَّ دَعَا له بتثبيت الحفظ، فقال لرجلٍ جاءه يسأله عن مسألة: (عَلَيْك بأبي هريرة، فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ندعوا الله ونذكره، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا، فقال: «عودوا لِلَّذي كنتم فيه». فدعوتُ أنا وصاحبي فجعل رسولُ الله ﷺ يؤمِّنُ على دعائنا. وَدَعَا أبو هريرة، فقال: إني أسألك ما سأل صاحباي وأسألك عِلماً

لا يُنسى، فقال رسول الله ﷺ: «آمين» فقلنا: يا رسـول الله، ونحن نسأل اللهَ علماً لا يُنسىٰ، فقال: سَبَقَكُم بها الغلامُ الدَّوْسي).

ومـع ذلـك لم ينقـطع كـلامُ النـاس فيـه، وتَحَـوَّل الهَمْسُ إلى كلامٍ صريح، فاضطر أبو هريرة للدفاعِ عن نفسه بجرأة وقوةٍ، وكشَفَ للنـاس عن سَبَبِ حفظه كشفـاً واضحـاً صـريحـاً، وجعـل يقول لهم:

(إنَّ النـاس يقـولـون: إنَّ أبـا هــريـرة يُكثِـرُ الحـديثَ، واللهُ الموعد. ويقولون: ما لِلمهَاجرين والأنصار لا يحدِّثون مثلَ حـديثه؟ وإنَّ إخـوتي مِنَ المهاجـرين كان يَشْغَلُهم الصَّفقُ بـالأسـواق، وإنَّ إخواني من الأنصار كـان يَشْغَلُهم العمل في أمـوالهم، وكنت امرءاً مسكينـاً، ألـزمُ رسـولَ الله ﷺ على مـلءِ بـطني، فـأَحْضُـر حين يغيبون، وأعي حين ينسَوْن). (. . . إني كنتُ امرءاً معتكِفاً، وكنتُ أكثر مجالسةَ رسولِ الله ﷺ، أحضر إذا غابوا، وأحفظُ إذا نَسُوا).

(إنــه لم يكن يَشْغَلُني عن رســولِ الله ﷺ غَـرْسٌ ولا صَفْقٌ بـالأسـواق، إنَّمـا كنتُ أطلبُ من رسـولِ الله ﷺ كلمـةً يعلِّمنيهـا أو أكلة يُطْعِمنِيهَا).

(كنتُ ألـزمُ النبـيَّ ﷺ لِشَبَـع بــطني، حين لا آكـل الخميـر ولا ألبس الحـريـر، ولا يخـدمني فـلانٌ ولا فـلانـة، وأُلصق بـطني

بالحَصْباء، وأَستقرىء الرجلَ الآيةَ وهي معي؛ كي ينقلبَ بي فيُطعمني).

ثم أخذ يذكِّر الناسَ بأنَّ رسول الله ﷺ قد دعَا له بأن يهبَه الله علماً لا يُنْسىٰ، ويقول لهم: ما بي من الحفظ هو دعوة رسول الله لي.

وسكتَ معظمُ من كان يتكلَّم في أبي هريرة، وقلَّ الكلامُ في شأنه، وأذْعَنَ له النَّاس، وظلَّ شأنُهُ يرتفع، وعلمُهُ يَنْتَشِرُ، وفَضْلُه يَشِيع.

ـ ٥ ـ

قام أبو هريرة في يوم جُمعة، وأخذ برُمَّانَتَيْ المنبر، وأمامه الناس قد ملأوا المسجد حتى ضاقَ بهم، ثم قال: أيها الناس، قال رسول الله الصَّادق المصدوق أبو القاسم ﷺ: «مَنْ كَذَب عليَّ مُتَعَمِّداً؛ فَلْيَتَبَوأ مقعدَه من النار».

سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أمتي يأتونَ يوم القيامة غُرَّاً مُحَجَّلين من أَثَرِ الوضوء، فَمَن استطاعَ منكم أنْ يطيل غُرَّتَه فَلْيَفْعَل».

حَدَّثنا رسول الله ﷺ فقال: «لو يعلمُ النَّاسُ ما في النداء والصفِّ الأول؛ ثم لم يجدوا إلا أن يستَهِموا عليه لاستَهَمُوا،

ولـو يعلمونَ مـا في التهجير[1] لاستبقـوا إليه، ولـو يعلمـون مـا في العَتَمةِ والصُّبح لأَتَوْهما ولو حَبْواً».

وقال لنا رسول الله ﷺ: «إذا أمَّ أحدُكم النَّـاسَ فَلْيُخَفِّفْ؛ فإنَّ فيهم الصغيرَ والكبيرَ والضعيفَ والمريضَ. فـإذا صلَّى وحـده، فليصلِّ كيفَ شاء».

وقـال رسـول الله ﷺ: «أقـرب مـا يكـون العبـدُ من ربِّـه وهـو ساجد، فأكْثِروا الدعاء».

وقال لنا رسـول الله ﷺ: «إذا تَشَهَّدَ أحـدكم فلْيَسْتَعِذْ بـالله مِنْ أربع، يقول: اللهم إنِّي أعـوذ بك من عَـذَاب جهنَّم، ومن عذابِ القبْر، ومن فتنَةِ المحيَا والممَات، ومنْ شَرِّ فِتْنَةِ المسيحِ الدجَّال».

وحدثنا رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ سبَّـح الله في دُبُر كـلِّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وَحَمِدَ اللهَ ثـلاثاً وثـلاثين، وكبَّرَ الله ثـلاثاً وثـلاثين، فتلك تسعـةٌ وتسعون، وقـال في تمام المـائة: لا إلـه إلا الله وحدَهُ لا شَـريكَ لـه، له المُلْكُ ولـه الحمدُ وهـو على كلِّ شيءٍ قـديـر؛ غُفِرَتْ خَطَاياهُ وإنْ كانَتْ مثلَ زَبَد البحر».

وحدَّثَنَا رسـول الله ﷺ فقال: «يتعـاقبونَ فيكم مـلائكةٌ بـالليل

---

(١) التبكير إلى المسجد والمبادرة إليه.

وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر. ويعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون».

وسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبين عبدي نصفَيْن، ولعبدي ما سَأَل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالمين، قالَ اللهُ تعالى: حَمِدَني عبدي. وإذا قال: الرَّحمٰنُ الرحيم، قال اللهُ تعالى: أثنىٰ عليَّ عَبْدي. وإذا قال: مالِكِ يوم الدِّين، قال: مجَّدني عَبْدي. فإذا قال: إيَّاك نَعْبُدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سَأَل، فإذا قال: اهدِنَا الصِّراطَ المستقيم؛ صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

واستمرَّ أبو هريرة يروي للناس أحاديثَ عن رسولِ الله ﷺ في موضوع الصلاة، حتى إذا أحسَّ أن وقتَ الأذان للصلاة قد حان، خَتَم كلامَه فقال:

أيُّها الناس: وقال رسول الله ﷺ: «الدينُ النصيحة، الدينُ النصيحة، الدينُ النصيحة، فقلنا: لِمَنْ؟ قال: للهِ، ولكتابِهِ، ولأئِمَّةِ المسلمينَ وعامَّتِهِم».

ثم جلس بين الناس.

وبعـد صلاة الجمعـة سَعَى ساعٍ إلى حجـرة السيدة عـائشة، فسلَّم وقـال: يا أم المؤمنين، ألم تسمعي مـا حدَّث بـه أبو هـريـرة النـاس؟ قالت: بلى، فقـال لها: أكلُّهُ سمعـه من رسول الله ﷺ؟! ثم تعجَّب الرجل من كَثْرة تحديث أبـي هريرة وتعجَّبت هي أيضاً، وقالت: لأُكَلِّمَنَّ أبا هريرة في ذلك.

وأرسلت وراءَه من الغـد فقالت لـه: (يا أبـا هريـرة، مـا هـذه الأحاديث التي تَبْلُغنا أنـك تحدِّثُ بهـا عن النبـيِّ ﷺ؟ هل سمعتَ إلا ما سمعنا، وهل رأيتَ إلا ما رأينا؟!).

وأدرك أبـو هريـرة أنَّ كلام عـائشة هـو انعكاس لأقـوال الناس فيه، وانبرىٰ يجيبُها وهو ثابتُ الجَأْشِ قويُّ النَّبْرة، وذكَّـرها بكثـرةِ مـلازمتِهِ للنبـيِّ عليـه الصلاة والسـلام، وأنـه مـا كـان يَشْغَلُه عنـه شيء. وقال لها في جملة مـا قال: (يـا أُمَّاه، إنـه كان يَشْغَلُكِ عن رسـولِ اللهِ المرآة والمُكْحُلة والتصنُّـع لرسـول الله ﷺ. وإنِّي والله ما كان يَشْغَلُني عنه شيء).

وتحـارُ السيدة فيمـا تجيب به أبـا هريـرة، فتسكت، وينصرف أبو هريرة.

أمـا أبو هـريرة، فقـد مضى في تحـديثـه، وأصبـح لا يخشى

منتَقِـداً، ولا يزعجـه لائم. وصار يـأتي أحيانـاً إلى جـانب حجـرة السيـدة عـائشـة فيجلس ويجتمـع إليـه النـاس فيحـدِّثهم ويقـول: اسمعي يا ربَّة الحجرة. وتجلس رَبَّة الحجـرة في حجرتهـا تستمع كما يستمعُ الناس، ولا تزيـد على الاستماع، فقـد كانت عـاهدتْ نفسَهَا ألا تقول لأبـي هريرة شيئـاً بعد الـذي سمعَتْه منـه مرتين في أنَّه ما شغله عن النبـيِّ عليه الصلاة والسلام الذي شغلها، فقد قال لهـا هذا الكـلام على مَسْمَعٍ من النـاس، ثم قـالـه بحضـرة بعض الأصحـاب، حين دَخَلَ عليهـا حُجْرَتَهـا من قريب وقـال: السـلام عليكم ورحمـة الله وبركـاته، وأجـابَتْه السيِّـدَةُ من وراء الحجاب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أبو هريرة؟ قال: نعم، قالت: إنـك أكثرتَ يـا أبا هـريرة عن رسـول الله!! ولم يسكت أبو هـريرة فأجابَهَا بجوابه الذي كـان من قريب قـاله لهـا: (إي والله يا أمَّـاه، ما كانت تشغلني عنه المرآةُ ولا المُكْحُلة ولا المُدْهُن).

وتضحك السيدة لجوابه وتقول: لعله.

كان رحمه الله واثقاً من حفظه، يدفعه إلى التحـديث حبُّ الله ورسـوله وحبُّ الخيـر للناس جميعـاً، والخشيةُ من كتمـان العلم. وكان يخاف من آيتين من آيات القرآن، ويـذكر للنـاس أنه يخـاف منهما فيقول:

«والله، لولا آيتانِ من كتابِ الله ما حدَّثتكم شيئاً أبداً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

— ٦ —

ولغط بعض الناس أمام عبد الله بن عمر في إكثار أبي هريرة من التحديث، ووقر في قلب ابنِ عمرَ شيءٌ على أبي هريرة، وجعل يتسمَّعُ لأحاديثه، لا سيما تلك التي يرويها يوم الجمعة، فلا يجد مَمْسَكاً عليه، ولا يجدُ منه إلا حفظاً متيناً، وفقهاً صحيحاً، فيتبدَّدُ ما وَقَرَ في نفسه إلَّا أشياءَ صغيرة بقيت تنتظر ما يُزيلها تماماً.

وجاء أوان ذلك، فقد سَمِعَ ابنُ عمر أبا هريرة يحدِّث مَرَّةً الناس بهذا الحديث ويرفعُه إلى النبي ﷺ:

«من تبع جَنَازةً فصلَّى عليها فله قيراط، فإنْ شَهِدَ دَفْنَها فله قيراطان، القيراط أعظمُ مِنْ أُحُد».

واستعظَم ابنُ عمر ما سَمِعَ، وبعد انتهاءِ أبي هريرة

من تحديثه انتحىٰ به جانباً وقال له: أبا هـريرة انـظر ما تحـدِّث عن رسول الله ﷺ!!.

فقال له أبو هريرة: واللهِ ما أُحَدِّثُ إلا بما سمعتُ، ثم أمسـك بيد ابن عمر وانطلقَ به إلى حُجْرةِ السيدة عائشة، وقال لها: يـا أمَّ المؤمنين أَنْشُـدُكِ بـالله، أسمعتِ رسـولَ الله ﷺ يقـول: «مَنْ تَبِـعَ جَنَـازةً، فَصَلَّى عليها فَلَهُ قيـراط، فإنْ شَهِـدَ دَفْنَها فله قيـراطـان»؟ فقالت: اللهمَّ نعم.

وأشرقَ وَجْهُ أبـي هريرة سروراً واتَّجه إلى ابنِ عمـرَ وقال لـه: يـا أبـا عبـد الـرحمن، إنـه لم يَشْغَلْني عن رسـول الله ﷺ غـرسٌ بالوادي، وصَفْقٌ بالأسواق، إني إنما كنت أطلبُ من رسول الله ﷺ كلمةً يعلِّمنيها أو أُكْلةً يـطعمنيها. ولم يجـد ابن عمر إلا أن يشهـد له، فقال له: أنت يا أبا هريـرة كنتَ أَلْزَمَنـا لرسـول الله ﷺ وأعلَمَنا بحديثه. ثم انطلق يضْرِبُ كفَّاً على كفّ يلومُ نفسَه ويقول:

لقد فَرَّطْنا في قراريطَ كثيرةٍ!!.

وتبـدَّدَ كـلُّ شيءٍ في قلب ابنِ عُمَـرَ على حفظِ أبـي هـريـرة وتحديثِه، وَعَرَف أنَّ الرجـل متينُ الحفظ صادقُـه، وأنه قـد سبقهم جميعاً في هذا المضمار.

وجاءه رجل في يوم يقول لـه: يا أبـا عبد الـرحمن، هل تنكـر

مما يحدث أبو هريرة شيئاً؟! فقال له: لا، ولكنه اجترأ وجَبُنّا. وفَرِحَ الرجل بشهادة ابن عمر ـ وهو الصحابيُّ الجليل والعالم الكبير ـ لأستاذهم أبي هريرة، وَقَامَ مِنْ تَوِّهِ يُخبرُه بشهادةِ ابنِ عمرَ له، فيقول أبو هريرة وهو يضحك:

فما ذنبي؛ إنْ حَفِظْتُ ونسُوا؟!.

ـ ٧ ـ

كانت المدينةُ المنوَّرة أحبَّ بلادِ الله إلىٰ أبي هريرة، وكان يُؤْثِرُ الإقامةَ فيها على غيرها؛ بَيْدَ أنه كانت تتوقُ نفسُه للحجِّ إلى بيتِ الله الحَرَام، وكان يحبُّ أن يزورَ بعض الأمصار الإسلامية، كي ينشرَ فيها علمه، ويذيعَ حديثَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام. وكان يُثقله عن الارتحال ـ بالإضافة إلى إيثاره المدينة على غيرها ـ أمُّه، فقد طالت بها الحياة، وكان باراًّ بها، يَرْعَىٰ حقَّها، ويزورُها كلَّ يوم فيقول لها: جزاكِ الله يا أمُّ خيراً كما ربَّيْتِني صغيراً، فتجيبه هي: جَزَاكَ الله يا بُنيَّ خيراً كما بَرِرْتَني كبيراً.

واستمرَّ ملازماً لمدينة النبي عليه الصلاة والسلام لا يبارحها إلى أن ماتت أمُّه، عندها انطلق أبو هريرة في بلاد الإسلام، وطوَّفَ في أمصار عديدة، فزارَ الكوفةَ والبصرةَ ودِمشقَ وغيرَها، وحدَّثَ في كل مكانٍ حلَّ فيه، واجتمع عليه النَّاسُ في كل بلدٍ

وَصَله، واحتفلوا بـه، وأفادهم من علمِـه. يقول مكحـول: تواعَـدَ الناسُ ليلةً إلى قُبّة من قبـاب معاويـة، فاجتمعـوا فيها، فقـامَ فيهم أبو هريرة يحدِّثُهم عن رسولِ الله ﷺ حتى أصبحَ النَّاسُ.

ولقد كان أبو هريرة يحضر معظمَ مواسمِ الحج. بعد وفـاة أمِّه، وكان يلتقي في الموسم بـطلَّاب العلم وبمحبِّي الحديثِ النبـوي، فيستغلّون هم تلك الفـرصـة فيـلازمـونـه، ولا يتـركـونـه إلا بعـد أن يتزوّدوا بزادٍ طيبٍ من العلم.

ولم يترك أبو هريرة ممَّا وَعَاه عن رسول الله ﷺ شيئاً إلا حدَّث به، إلا باباً واحداً من أبواب العلم أبقاه مغلقاً، ورأى ـ بِبُعْد نَظَرِهِ ورَجَاحَةِ عقله ـ أنْ لا يحدِّثَ الناسَ شيئاً من أحاديثِ هذا الباب، فقد كانت أحاديثُه في الفتن، ولقـد كان فيهـا نبوءاتٌ قـد تحقَّقَتْ، ونبوءاتٌ لم تتحقق بعدُ، وقد يصعب على الناس تصـوُّرُ وقوعهـا، فخَشِيَ أبـو هريـرة أن لا يصدِّقـوهَـا، فيعـرِّض حديثَ النبـيِّ عليـه الصلاة والسلام للتكذيب.

وأعلنَ مـراراً أمامَ النـاس أن عنـده علمـاً لم يحـدِّثْهم بـه وأنَّ ما حدثهم به ليس كلَّ ما عنده من علم! كان يقول لهم:

(حفظتُ من رسول الله ﷺ وعَـاءَين: فأمَّـا أحدهمـا فَبَثَثْتُهُ في الناس، وأما الآخر فلو بَثَثْتُه لَقُطِعَ منّي هذا البلعوم).

وكـان يقـول لهم أيضـاً: (رُبَّ كيسٍ عنـد أبـي هـريـرة، لم يفتحه).

وفَـطِنَ لكلام هـذا الحَبْر الجليـل فيمـا بعـد أئمـةُ الإسـلام، وفهموا مرماه، فهذا الإمام الذهبـي يقول معلِّقاً على كلامه:

قلت: (هذا دالّ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرِّك فتنةً في الأصول أو الفـروع، أو المدح أو الـذم، أما حـديثٌ يتعلَّق بحلٍّ أو حرام، فلا يحلّ كتمانه بـوجه، فـإنه من البيِّنـاتِ والهُدى. وفي صحيـح البخاري قـول الإمام علي رضي الله عنـه: (حـدِّثـوا النَّـاس بما تعـرفون، ودَعُـوا مـا تُنكـرون؛ أتُحبـون أن يُكَـذَّب اللهُ ورسولُه)!! وكذا لو بثَّ أبو هريـرة ذلك الـوعاءَ لأُوذي، بـل لَقُتِل، ولكنَّ العالم قد يؤدِّيه اجتهادُه إلى أن ينشرَ الحديثَ الفـلانيّ إحياءً للسنَّة، فله ما نوى وله أجر، وإن غلط في اجتهاده).

وهـذا الحـافظ ابن كثيـر يقـول: (وهـذا الـوعـاء الـذي كـان لا يتظاهر به هو الفتنُ والملاحمُ، وما وَقَع بين الناس من الحـروب والقتال وما سيقع، التي لو أُخبر بها قَبْل كَوْنها لبادرَ كثيـرٌ من الناس إلى تكذيبه، وردُّوا ما أُخْبَر به من الحق، كما لو قال: لـو أخبرتكم أنـكم تـقتـلون إمـامَكـم وتقـتتـلون فيمـا بيـنكـم بـالـسيـوف لما صدّقتموني).

وقـال الإمام ابن حجـر عن ابن المنُيِّر شـارح البخاري: (أراد أبو هريرة بقوله: (لقُطِعَ هذا البلعوم): أي قَـطَع أهل الجَـوْر رأسه إذا سَمِعـوا عَيْبَه لفعلهم وتضليلَه لسعيهم). وقـال غيرُه ــ أي غيـر ابن المُنَيِّرِ ــ: (يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلّق بأشراط الساعة وتغيُّـر الأحوال والمـلاحم في آخر الـزمان، فينكـر ذلك من لم يألَفْه، ويعترض عليه من لا شعور له به).

ــ ٨ ــ

كَثُرَ الوافدونَ على المدينةِ المنوَّرة من أجـلِ سماعِ الحـديث من أبـي هريرة رضي الله عنـه، وكَثُرَ طُـلاَّبه والآخـذون عنه، حتى بَلَغَ عـددهم ثمانمـائة، كـان منهم عددٌ من الصحـابة: كـأنسِ بنِ مالكٍ، وجابرِ بن عبـدِ الله، وابنِ عباس، وواثلةِ بن الأسقـع. وكان منهم عـددٌ كبير من أبنـاءِ الصحابـة ومن سادة التـابعين: كـالحسنِ البَصْـري، وسعيدِ بن المسيِّب ــ الـذي زَوَّجَه أبـو هريـرة ابنتَه ــ، ومحمـد بن سيـرين، وأبـو إدريس الخَـوْلاني، وأبـو سَلَمـة بن عبد الرحمن.

ولَفَتَ هـذا نـظرَ أميـر المـدينـة من قِبَـل معـاويـة (مـروان بن الحكم)؛ فعزم على أن يمتحنَ أبا هـريرة ليتـأكَّد من حفـظه الذي

يـدَّعيه، ومِنْ قَـوْلَتِـه التي كـان يُكْثِـرُ من تَـرْدَادهـا: (مـا ذنبـي إنْ حَفِظْتُ ونسُوا).

وقال مروان لكاتبه أبـي الزُّعَيزعة ـ وكان كاتباً فَـطِناً ـ: أريـد أن أمتحن أبـا هـريـرة، وأريـدُك أن تجلس وراء ستـر في غـرفـة جلوسنـا، وأسألُ أنـا أبا هـريرة وأسْتَـرْويه الحـديث، وأنت تسجِّل كلامَه تاماً، وأجاب الكاتب: سمعاً وطاعة.

ودُعي أبو هريـرة إلى مروان ـ وكـان يدخـل عليه من قبـل ـ فجعل مروان يسأله: ماذا قال رسـولُ الله ﷺ في كذا وكـذا، وماذا حدَّثكم عن كذا، ومـاذا قال يـوم كذا، ومـاذا قال لفـلان، وانْبَرى أبو هريرة يُجِيبُه وكأنه يقـرأ من كتابٍ أمـامه، وجعـلَ أبو الـزُّعيزعـة يكتب كـل مـا يقـولـه أبـو هـريـرة. وانتهى الامتحـان، وانصــرفَ أبو هريرة وهو لا يدْري بما جرى.

ومضى عام، واستدْعىٰ مروانُ أبا هريرة، وأجلس أبا الزعيـزعة خلف السِّتْر، وقال لأبـي هريرة: نـريد أن تحـدثنا ببعضِ حـديثِ رسول الله ﷺ، فقال أبو هريرة: ليسأل الأميـر وأنا أحـدِّثه، فجعـل مروان يلقي عليه الأسئلة التي ألقاها منذ عام، ولكنـه قَدَّم وَأَخَّـر، وَجَعَل أبو هريرة يجيب، وأبو الزُّعيزعة ينـظر فيما كتبـه، فرأىٰ أنـه لا يزيد ولا ينقص. وفَطِنَ أبو هـريرة لـلأمر، فقـال لمروان: إنَّـك

سألتني أنْ أُحَدِّثك في هذه الأمور فيما مضى! فأجابه مروان: نعم، وإنما فعلنا ما فعلنا نريد اختبارَك. وَصَاح مروان: أخبرني! فأجابه: وخرج أبو الزُّعيزعة، فقال مروان: أخبرني! فأجابه: والله ــ أيها الأمير ــ ما زاد ولا نقص، ولا قدَّم ولا أخَّر عن حديثه السابق. وضحك مروان، وتهلَّل وجهُ أبي هريرة وقال لمروان:

(لقد صحبتُ رسول الله ﷺ سنين لم أكن في شيء أحرصَ مني أنْ أحفظَ شيئاً في تلك السنين... وما كنت في سنوات قط أعقلَ مني ولا أحبَّ أنْ أعي ما يقول رسول الله ﷺ مني فيهن. ولقد دَعا لي رسول الله ﷺ يا أبا عبد الملك، ووالله ما أحدِّثكم بكل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، فرُبَّ كِيسٍ عند أبي هريرة لم يفتَحْه).

***

أميرُ المدينة

ـ ١ ـ

عَرَفَ المسلمون في شتى أمصارهم فَضْلَ أبي هريرة، لا سيما أهل المدينة فقد كان المعلِّمَ الأولَ لهم، وقد مضى على انصرافه لتعليمهم ما يزيد على ثلاثين عاماً، وكان يؤُمُّهم في الصلاةِ في بعض الأحيان، وقد سَمَتْ منزلتُه عندهم فأصبحَ من أهمِّ الصحابةِ شأناً، وأكثَرَ النَّاسُ مِنْ ذِكْرِه والثناءِ عليه.

وقد حلَّ في نفسِ مروان بن الحكم ـ أمير المدينة لمعاوية ـ بالمحلِّ السَّامي، فقد أُعجب بحفظِهِ وَوَرَعِهِ وتَقواه، فجعل يسأله عما يَحْدُث له، ويستفتيه في المسائل، ويأخذ باجتهاده. ثم دفع إليه ولديه: عبد العزيز وعبد الملك ليفقِّهَهُما.

وممَّا زاد منزلة أبي هريرة في نفس مروان أنه كان عالماً صادقاً في علمه، مخلصاً في عمله، لا يبتغي غير وجه الله، لذا كان جريئاً في قولة الحق لا يخشى لومة لائم، حتى لقد أمر مروانَ بالمعروف ونهاه عن المنكر، ووعظه غير مرة غير هيَّابٍ ولا وَجِل.

يقول أبو مريم مولاه: (مرَّ أبو هريرة بمروان وهو يبني داره التي في وسط المدينة، فجلستُ إليه والعمَّال يعملون، فقال:

ابنوا شديداً، وأمِّلوا بعيداً، وموتوا قريباً. فقال مروان: إنَّ أبا هريرة يحدِّث العمال، فماذا تقول لهم يا أبا هريرة؟ فقال: قلت: ابنوا شديداً، وأمِّلوا بعيداً، وموتوا قريباً. يا مَعْشَر قريش، يا مَعْشَر قريش، اذكروا كيف كنتم أمس، وكيف أصبحتم اليوم تُخدمون، أرقاؤكم فارس والروم! كلوا خبزَ السَّميذ واللحم السمين، لا يأكل بعضكم بعضاً، ولا تكادَموا تكادُم[1] البَراذين[2]، كونوا اليوم صغاراً تكونوا غداً كباراً، واللهِ لا يرتفع منكم رجلٌ درجة إلا وَضَعه الله يومَ القيامة).

ولقد دخل على مروان داره ثانية وهي تُبنى، فرأى فيها تصاوير، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يقول الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي، فليخلقوا ذَرَّة، أو فليخلقوا حَبَّة، أو فليخلقوا شَعيرة».

وذهب إلى مروان في دار الإمارة، فقال مروان للبوَّاب: انظر مَنْ

---

(١) تكادُمَ البراذين: إذا عضَّ أحدهما صاحبه، والكَدْمُ أثر العضّ.
(٢) البِرذَون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، وهو عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرْجل، عظيم الحوافر، جمعه بَرَاذين.

بالباب؟ فقال: أبو هريرة، فأَذِنَ له، فقال: يا أبا هريرة حدثنا شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال أبو هريرة:

(سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ليوشك رجلٌ أن يتمنَّى أنه خرَّ من الثُّرَيَّا ولم يلِ من أمرِ النَّاسِ شيئاً»).

هذه المواقف من أبي هريرة، بالإضافة إلى علمه وفقهه، جعلت منزلتَه عند مروان كبيرة، وجعلته ينيبُه عنه في إمْرَةِ المدينة سنة أربع وخمسين، حينما كلَّفه معاوية بن أبي سفيان بإمْرة الحج لهذا العام، وَصعِد مروان المنبر يوم الجمعة، وأبلغ أهلَ المدينة بقراره في استخلافه أبا هريرة مكانه، فاستقبل الناسُ هذا القرار بارتياحٍ وسرور.

— ٢ —

فرح أهل المدينة بإمْرةِ أبي هريرة، فقدْ كانوا يحبونه حباً عظيماً، وكان يعجبهم حسنُ خلقه وسيرتِه. وقام هو بأعباء الإمارةِ خيرَ قيام، فصلَّى للناسِ إماماً، وخطبهم يوم الجمعة، وقضىٰ لهم، وفضَّ خصوماتِهِم، وساسَهُم بالعدل، وعاش بينهم كواحدٍ منهم، ولم تغيِّره الإمرة عن خُلُق كان عليه، بل لقد رأى منه الناس أشياء جعلوا يذكرونها له بالإكْبار والإجلال، لأنها تنمُّ عن عظيم

تواضعه وعن سموِّ نفسه واستصغارِه للمنصب والجاه، وعن صفاءِ نفسِه، وحُسْنِ خُلُقِه، وجميلِ دعابته وسخريته من زينةِ الحياة الدنيا، وشكره نعمة الله عليه.

فقد أُقيمت الصلاة يوماً في مسجد النبي ﷺ، وتقدَّم أبو هريرة فصلَّى بالناس إماماً، حتى إذا سلَّم راعَ الناسَ أنه التفت إليهم ورفع صوته قائلاً: (الحمدُ لله الذي جعل الدينَ قِوَاماً، وجعل أبا هريرة إماماً بعدما كان أجيراً لابنة غزوان على شَبَع بطنه وحَمُولة رِجْلِه. والله يا أهلَ الإسلام؛ إنْ كانت إجارتي معهم إلا على كسرةٍ يابسةٍ، وعقبة في ليلة غبراءَ مظلمةٍ، ثم زوجنيها الله).

ولقد كان يركب في بعض الأحيان حماراً قد شدَّ عليه بَرْدَعة[1]، وفي رأسه خُلْبة ليف[2]، فيسير في شأنه في طرقات المدينة، فإذا لقي رجلاً، قال له مازحاً: الطريق، قد جاء الأمير. وكان يحمل على ظهره حزمة الحطب ويمر في الطريق، فيقول لمن واجهه مازحاً: الطريق، قد جاء الأمير! يقول ثعلبة بن أبي مالك القُرَظي: أقبل أبو هريرة في السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير

(١) البَرْدَعة: ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه، كالسَّرج للفرس.
(٢) أي حبل رقيق صلب من الليف.

يـا ابن أبـي مالـك، فقلت له: يكفي هـذا، فقال: أوسـع الطريق للأمير، والحزمة عليه.

وكان يدعـو أبا رافـع ـ أحدَ أصحـابه ـ إلى عَشـائه بـالليل، حتى إذا وَضَـع الطعـام نظر أبـو هريـرة إلى أبـي رافـع وقـال لـه: يا أبا رافع دع العُراق (العـظم الذي عليـه شيء من لحم) للأميـر، ويظنُّ أبو رافع أنَّ في الطعام عُراقاً، فينظر، فإذا هو ثريد بـالزيت، ويضحك أبو رافع ملءَ فِيه، ويقول له: ما أكثـرَ ما تحبُّ أن تمـزحَ يا أبا هريرة.

وتقدم إليه ذاتَ يومٍ شاب بعدما خـرجوا من المسجـد، فقال له: لِمَ كُنِّيتَ أبا هـريرة؟ ونَـظَرَ فيه أبـو هريـرة وقال لـه: أما تَفْـرَقُ مني؟ فأجابه: بلىٰ واللهِ، إني لأهابك. وهنا ضحك أبو هريرة وقال لـه: كنت أرعى غنم أهلي، وكـانت لي هــريـرة صغيــرة، فكنت أضعها بالليل في شجرة، فـإذا كان النهـار ذهبتُ بها معي، فلعبت بها، فكنَّوني أبا هريرة.

وحتىٰ الصبيـان الصغار كـان لهم نصيبٌ من حسن خُلُق هـذا الأميـر وتواضُعِـه ومزاحـه، فقد ذكـروا أنه رُبَّمـا أتى الصبيان وهم يلعبون بالليل لعبة الغـراب، فلا يشعـرون بشيء، حتى يُلقي نفسَه بينهم، ويضـرب برجْلَيـه ــ يريـد أن يضحكهم ــ فيفـزع الصبيـان ويفرُّون.

ـ ٣ ـ

أناب مروان أبا هريـرة عنه مَـرَّتين في إمْرة المـدينة المنـوَّرة، وقرَّبَه وأجْـزَلَ له العـطاء لعلمِهِ وفضْلِهِ، وكـذا كان معـاوية يكـرمه ويرسلُ له العطاءَ من دِمَشقَ. ولكنه ـ وهو العـالمُ الصادقُ المبتغي بعلمـه وجـهَ الله والـدارَ الآخـرة ـ لم يكن ليسكتَ عن أمـور كـان يفعلها مروان، إذا مـا وجد فيهـا مخالفـةً للإسـلام. لقد كـان ينكر بعضاً من تصرُّفاته فيتراجع عنهـا، وأحيانـاً يصل الأمـر بمروان إلى حدِّ الغضب، فلا يجد من أبـي هريرة إلا الصَّلابة في الحق.

فقد دخل عليه يوماً دار الإمَارَةِ وقال له: أَحْلَلْتَ بيـع الرِّبـا؟! فقال مروان: ما فعلت. فقال أبو هريرة: أحللت بيع الصِّكـاك[1]، وقـد نهىٰ رسولُ الله ﷺ عن بيـع ِ الطعـام حتى يُستوفى. وتـراجع مـروان، وقـام فخـطبَ النـاسَ، فنهىٰ عن بيعِهَـا، وقـامَ الحــرس يأخذونها من أيدي الناس.

وكان معاوية ربما خَلَع مروان عن إمْرة المـدينة واستبـدل غيره به، لكنه كانت تبقىٰ له مكانتُه الكبيرة، وجاهُه في نفوسِ النـاس، لا سيما قومه بني أمية، فقد كان كبيرَهم وزعيمَهم. أما أبـو هريـرة

---

(١) المراد أن مروان أحلّ بيع ما لم يقبض.

فكان موقفه منه موقفَ الناصح الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في كلتا الحالتين: في إمرته وحالَ بُعْده عن الإمارة.

وحين ماتَ الحسن بن علي رضي الله عنهما ــ وكان مروان يومَها معزولاً من الولاية ــ خرجت المدينة كلُّها تشيِّعُه، وتقدَّمَ الجميعَ مروانُ بن الحكم، وأرادَ طائفةٌ من بني هاشم دفن الحسن في الحُجْرَةِ النبوية، فمنعهم من ذلك مروان ــ وكانت له كلمةٌ مسموعة ــ فراجعوه في ذلك فلم يقبل؛ وكثر اللغَطُ، وبيْنَا النَّاسُ على هذه الحال، أقبل أبو هريرة على مروان مُغْضَباً وصاحَ فيه: (واللهِ ما أنت بِوَالٍ، وإنَّ الوالي لغيرُك، فَدَعْه، لكنَّك تدخل فيما لا يعنيك، إنَّما تريد بهذا إرضاءَ من غاب عنك ــ يريد معاوية ــ).

وسمع جمهورُ الناس كلامَ أبي هريرة لمروان، وغضب مروان غضبةً شديدةً وقال: يا أبا هريرة، إنَّ الناس يقولون: إنك أكثرتَ علىٰ رسول الله ﷺ الحديث، وإنما قَدِمتَ قبل وفاة النبيِّ ﷺ بيسيرا!.

وردَّ عليه أبو هريرة قائلًا: نعم. قدمتُ ورسول الله بخيبر سنة سبع، وأنا يومئذ في الثلاثين، وأقمت معه حتى توفي، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه، وأنا والله يومئذ مُقِلّ، وأصلي خلفه وأغزو معه، فكنت ــ والله ــ أعلمَ الناس بحديثه.

قـد ـ والله ـ سبقني قـومٌ بصحبتـه والهجـرة إليـه من قـريش والأنصار، وكانوا يعرفون لزومي له، فيسألوني عن حديثه، منهم: عمـر وعثمان وعلي وطلحـة والزبيـر، فلا واللهِ مـا يخفى عليَّ كـلُّ حديث كان بالمدينة، وكلُّ من أحبَّ اللهَ ورسـولَه، وكـلُّ من كانت لـه عند رسـول الله ﷺ منزلـة، وكل صـاحب لـه. . . إني أسلمتُ وهاجرتُ اختياراً وطَوْعاً، وأحببتُ رسولَ الله ﷺ حباً شديداً، وأنتم أهل الدار، وموضع الدعوة، أخرجتم الداعي من أرضِـهِ، وآذيتموه وأصحابَه، وتأخَّر إسلامُكُم عن إسلامي!!.

وأُسكت مـروان، ولـم يَنْبُس بِبِنْت شفـة[١]، وظـلَّ من يـومهـا ساكتاً يقصر عن أبـي هريرة ويتّقيه ويخافه ويخشى جوابه.

*
**

(١) أي لم تتحرك شفتاه بشيء.

العابدُ التّقي

ـ ١ ـ

لئن كان العلم: طلبُه وبثُّه، هو الميزةَ الكبرى لهذا الصحابيِّ الجليل، فهناك ميزةٌ أخرى له لا تقلّ أبداً عن سابقتها، تلك الميزة هي تقوىٰ اللهِ عز وجل حقَّ تقاته، والاجتهاد العظيم في الطاعة والتقرُّب إليه سبحانه، والتخلُّق بالأخلاق الحسنة، والتجمُّل بالسيرة الحميدة. ولا عجب في ذلك فهذا ما تعلّمه الأصحابُ من رسول الله ﷺ، تعلموا العلمَ والعَمَل، وهذا ما يجْدُر بالعالمِ الصَّادق: أن يعملَ بعلمه، وأن يطبِّقَه على نفسِهِ، ليقتديَ به غيره.

كان ـ رضي الله عنه ـ كثيرَ العبادة، كثيرَ التهجُّد، طويلَ الركوع والسجود، كثيرَ الاستغفار والتسبيح، عريضَ الدعاء، أوَّاباً أوَّاهاً، يصومُ الاثنين والخميس، ولا يدعهما.

كان يجزِّىء الليلَ ثلاثةَ أجزاء: ينامُ ثلثه، ويقومُ ثلثه، ويتذكَّر في الثلث الآخر حديث رسول الله ﷺ.

وكان يوقظ أهلَهُ لقيام الليل. يقول أبو عثمان النَّهْدي ــ وهو من كبار التابعين ــ: (تضيَّفتُ أبا هريرة سَبْعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا).

وكان يستغفرُ اللهَ في اليوم الواحد ألوفَ المرَّات كما رويَ عنه؛ ويكثر الدعاء ويقول: (إنَّ أبخلَ الناسِ مَنْ بَخِلَ بالسلام، وأعجَزَ الناس من عَجَزَ عن الدعاء).

وكان يخرج هو وابن عمر إلى السوق أيامَ العَشْر الأولى من ذي الحجة يكبِّران ويكبِّر الناس بتكبيرهما.

وكان يجتهدُ في الإتيان بركعتي سُنَّة الفجر ويوصي أصحابه بهما ويقول: (لا تَدَعْ رَكْعَتي سنَّة الفجر ولو طرقتك الخيل).

وكانت له أربعة مساجد: مسجدٌ في مخدعه، ومسجدٌ في بيته، ومسجدٌ في حجرته، ومسجدٌ على باب داره، إذا خرج صلَّى فيها جميعاً.

وكان كثيرَ التلاوة للقرآن الكريم، لا سيما في الصلاة، شديدَ الاتّباع لرسول الله ﷺ في صلاته، يقول أبو رافع: (صَلَّيْتُ مع أبي هريرة صلاةَ العَتَمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فَسَجد فيها، فقلت له: ما هذه السجدة؟ فقال: سَجَدْتُ بها خَلْفَ أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجدُ بها حتى ألقاه).

أما الصومُ فكان يصوم في كل شهرٍ ثلاثة أيام عدا يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، تطبيقاً لوصيَّةِ رسول الله ﷺ له، فقد قال: (أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيامٍ من كل شهر، وركعَتَيْ الفجر، وأن أُوتِرَ قبل أن أنام).

ولقد طالت فترة عُزوبَتِه رضي الله عنه، وتأخَّر في زواجه فخشيَ على نفسه الوقوعَ في الكبائر، فكان يدعو الله في سجوده أن يعصِمَه منها ليسلَمَ له دينه، ولقد ذكروا أنه كان يتعوَّذ في سجوده أن يزني، أو يَسْرق، أو يكفر، أو يعمل كبيرةً، فقيل له: أتخاف ذلك؟ فقال: ما يؤمنني وإبليس حي!!.

ولا يكون الإنسان عابداً حقاً إلا إذا قَرَن شكرَه بالعمل بشكرِ اللسان، ولا تَسَل عن شكر أبي هريرة في هذا المجال، فكثيراً ما أسمعَ الناسَ أنه كان كذا وصارَ كذا، وكثيراً ما رفعَ صوتَه شاكراً على نِعَمِ الله المُتَرادِفَةِ عليه، وكانَ يُكثِرُ أن يقول:

(الحمدُ للهِ الذي هدىٰ أبا هريرة للإسلام، الحمد لله الذي علَّم أبا هريرة القرآن، الحمدُ لله الذي منَّ علىٰ أبي هريرة بمحمد عليه الصلاة والسلام).

ـ ٢ ـ

وأُولىٰ ثمـراتِ التقـوى والعبـادة: الخُلُق الحسن، والسيـرة الحميـدةُ، وقد وَهَبَ اللهُ أبـا هـريـرة منهمـا الشيءَ الكثيـرَ. وأحقُّ الناس بالمخالقَةِ الحَسَنَةِ: الأهلُ والأقاربُ والجيرانُ والأصحـابُ، وَقَدْ كان أبو هريرة أبرَّ الناس بأمـه، ارتحل بهـا من بلادِ اليمن إلى المدينةِ المنوَّرة وصَبَر على شِرْكها وعالجها كثيراً حتى أسْلَمت، ثم وقَفَ نفسَه على خدمتها حتى ماتَتْ راضيةً عنه. وكـان بارًّا بـأولاده فـأحسنَ تـربيتَهُم، وكـان بـارًّا بمـواليـه، فعلَّمهم وأدَّبهم وأحسنَ إليهم، وكان بارًّا بجيرانِهِ وأصحابِهِ وإخوانِهِ، مُكْرِماً لهم، بـاشًّاً في وجـوههم، يتلطَّف معهم، ويكلِّمُهُم بـأحسن الكـلام. وكـان بـارًّا بالناس جميعاً، مُحِبًّاً لهم، ناصِحَاً شفوقاً، لذلك وقف نفسـه على تعليمهم وتفقيههم، وأمَـرَهم بـالمعـروف ونهـاهُم عن المنكـر، وتواضَعَ لهم، ونَثَر عليهم من دعابته.

ولم يغترّ هذا الحَبْر الجليل بعلمِه وشهرتِه وجاهِه، فلقد قال لابن عباس ـ وكان أصغرَ منه بكثير ـ: أنت خيرٌ مني وأعلم.

وكـان كريمـاً منفقـاً، يقـول الطفـاوي: (تثـويت أبـا هـريـرة بـالمـدينـة، فلم أر رجـلاً من أصحـاب النبـي ﷺ أشـدَّ تشميـراً، ولا أقومَ على ضيف منه).

ويقول حُمَيد بن مالك بن خثيم: (كنت جالساً مع أبي هريرة بأرضه بالعقيق، فأتاه قوم من أهل المدينة على دوابّ، فنزلوا، قال حُمَيد: فقال أبو هريرة: اذهب إلى أمي وقل لها: (إنَّ ابنكِ يُقرئكِ السلام ويقول: أطعمينا شيئاً. قال: فوضعت ثلاثة أقراص من شعير، وشيئاً من زيت وملح في صفحة، فوضعتها على رأسي، فحملتها إليهم، فلما وضعته بين أيديهم كبَّر أبو هريرة وقال: الحمد لله الذي أَشْبَعَنا من الخبز بعد أن لم يكن طعامنا إلا الأسودان التمر والماء.

يقول حُمَيد: فلما انصرفوا قال: يا ابنَ أخي، أَحْسِن إلى غنمك، وامسَح عنها الرُّعام ـ المخاط وما يسيل من أنوف الشاء ـ وأَطِبْ مَراحَها وصلِّ في ناحيتها، فإنها من دواب الجنَّة. والذي نفسي بيده: يوشك أن يأتي على الناس زمان، تكون الثلَّة من الغنم أحب إلى صاحبها من دار مروان).

ويقول أبو الزُّعيزعة كاتب مروان: (بعث مروان إلى أبي هريرة بمائة دينار، فلما كان بعدُ أرسل إليه، فقال: إنه ليس إليك بعثت وإنما غلطت، فقال: ما عندي منها شيء، وإذا خَرَج عطائي فاقْتَصِره).

فقال: وإنما أراد مروان هل ينفقها أم يحبِسُها؟.

وبذلَ مالَه رضي الله عنه في إعتاق العبيد وفي تربية اليتامى.

ذكروا أنه كانت له زنجيَّة قد أغمَّتْه بعملِها، فرفع عليها يوماً السَّوْط، ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشيتُك به، ولكن سأبيعكِ ممن يوفيني ثمنَكِ أحوجَ ما أكون إليه، اذهبي فأنت حرَّةٌ لله عز وجل.

وكان رحمه الله مَرِحاً يحبُّ النكتة. جاءَهُ شاب فقال: يا أبا هريرة إني أصبحتُ صَائِماً، فدخلت على أبي فجاءَني بخبز ولحم فأكلت ناسياً، فقال: طُعْمةٌ أطعمكها الله لا عليك، قال: ثم دخلت داراً لأهلي، فجيء بلبن لقحة فشربته ناسياً، قال: لا عليك، قال: ثم نمت فاستيقظت فشربت ماءً، فقال له أبو هريرة: إنك يا ابنَ أخي لم تعتد الصيام!!.

— ٣ —

وحين أقْبَلَتِ الدنيا على أبي هريرة رضي الله عنه، وكَثُرَ المال بين يديه، ولَبِسَ الخَزَّ، وتحسَّنَتْ أحوالُه، لم تَفْتِنْه الدنيا، ولم يَنْصرف إليها، بل كان زاهداً بها مُتَطَلِّعاً إلى الآخرة، ينهجُ نهجَ رسول الله وخلفائه الراشدين المهديين، وقد جعلَ من وَصِيَّة رسول الله له دستوراً لحياته، فقد وصَّاه يوماً فقال له:

«يا أبا هريرة كُنْ وَرِعاً تكن أعبدَ الناس، وكن قَنِعاً تكن أشكرَ الناس، وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً، وأحْسِنْ جِوار

مَنْ جَاوَرَك تكُنْ مُسلماً، وأقلَّ الضَّحِكَ فإنَّ كَثْرة الضَّحِكِ تميتُ القلب».

فعاش رحمه الله يرنو إلى الآخرة، غيرَ متطلِّع إلى الدنيا، يستخفُّ بشهواتها وزينتها، ويذكر دائماً أنه سيُسأل في قبره، وسيقف بين يدي ربه، وسيحاسبُه على عمله.

كان ــ رحمه الله ــ يذكِّر نفسَه والناسَ كلَّ يوم مرتين بعذابِ القبر، فكان يصيح عند الصباح: ذهبَ الليلُ وجاء النهار وعُرِضَ آل فرعون على العذاب، ويصيحُ عند المساء: ذهبَ النهارُ وجاءَ الليل وعُرِضَ آلُ فِرْعون على العذاب. فلا يسمعه أحدٌ إلا استعاذ باللهِ من النار.

وكانَ كلَّما رأى جنازةً يقول: روحوا فإنَّا غادون، أو اغدوا فإنَّا رائحون.

كان دائماً يذكر الحساب ويخافُ العقاب ويزهد في الدنيا ويقول للناس:

(لا تَغْبِطُنَّ فاجراً بنعمة، فإنَّ من ورائه طالباً حثيثاً طلبه: جهنَّم؛ كلما خَبَتْ زِدْنَاهم سَعِيراً).

***

يومُــــهُ الأخيــرُ

ــ ١ ــ

تَقَدَّمَ العُمُر بالصحابيِّ الجليل أبي هريرة، وجَاوَزَ الكهـولةَ، وإنه الآن في الشيخوخة، وإنَّه الآن يكـاد يُنهي العَقْدَ الخـامس من عمره الذي عاشه بعد وفاة النبيِّ عليه الصلاة والسـلام، لقد امتـدَّ بـه العمـر بعــد نبـيِّ الهـدى، ولقــد وَدَّعَ كبـارَ أصحــابـه ومشىٰ في جنـائزهم، وكـانَ آخر جنـازةٍ مشى فيها جنـازة السيـدةِ الجليلة أم المؤمنين عائشة، فقد صلَّىٰ عليها سنـة ٥٨ للهجرة وشيَّعهـا إلى مثواها الأخير رحمها الله.

وَمَرِضَ أبو هريرة وشعَرَ بدنوِّ أَجَلِه، بل لقد استعجل هو أَجَلَه، وجعل يدعو اللهَ أن يَقْبِضَه إليه قبل سنـة الستين، وساءَتْ صِحَّتـه، ودبَّ الـوهن في سـائـرِ جسمـه، وأيقنَ أنـــه مَـرَضُ المــوت وأنـه سيفارِقُ الدنيا.

وَشَـاعَ في مدينـة النبـيِّ عليه الصـلاة والسلام أنَّ كبيـر علماء

الإسلام في ذلك الزمان وحافظ الصحابة ــ أبا هـريرة ــ قـد مَرِضَ وأشرفَ على الهلاك، وأقبلَ النَّاسُ على منزله يعـودونه، وتقـاطَروا عليه من كل مكان، وكلُّهم تمنَّى له العـافية، وأن يمتـدَّ به العمـر، ليكسَبـوا منه جـديـداً من العلم، فقـد كـان عنـده علم لا يَنْضَب، وكانت الحكمةُ تَتَفَجَّر من جوانِبِه.

دَخَلَ عليه تلميذه (أبو سَلَمة بن عبد الـرحمن بن عوف) فـرأىٰ أنَّ وجعَهُ شديدٌ، فأشفَقَ عليـه، وسالت الـدموعُ من عينيـه، وأقبل عليـه يحتَضِنُه ويقـول: (اللهمَّ اشفِ أبا هـريرة)، لكنَّ أبـا هـريـرة جعـلَ يقـول: اللهم لا تـرجعهـا، اللهم لا تــرجعهـا، ونَــظَر إلى أبـي سلمة وقال له بصوتٍ خافت: (إن استطعت أن تموتَ فمُتْ، واللهِ الذي نَفْسُ أبـي هريرة بيده ليأتِيَنَّ على الناس زمانٌ يمرُّ الرجلُ على قبر أخيه فيتمنى أنه صاحبه).

ودخل عليه طائفة من أهـل المدينـة، فنظر في وجـوهِهِم، ثم أجْهَشَ في البكـاء، ورقَّتْ لبكـائِـهِ نفـوسُهُم، وقـال لـه أحــدهم: ما يُبْكيك يا أبا هريرة؟ فأجابه:

(أما إنِي لا أبكِي على دُنْياكم هـذه، ولكن أبكي لبُعْدِ سفـري وقِلَّة زادي. أصبحتُ في صعود مَهْبَطُه على جنَّةٍ أو نار، فـلا أدري أيهما يُسْلَكُ بـي).

وَدَهِشَ الحضور لكلمات هذا الرجل الذي امتلأ قلبه خشيةً لله، ولم يُفتَن بما قدَّمه من صالح العمل، وكان درساً بليغاً وعِظَةً رائعة.

ودَعا أبو هريرة إليه أولادَه الأربعة: المحرَّر، ومحرَّزاً، وعبد الرحمن، وبلالاً، ودعا إليه مواليه وصهَره سعيد بن المسيِّب، وكبار تلاميذه، وأوصاهم قائلاً: (إذا متُّ فلا تنوحوا عليَّ، فإن رسول الله ﷺ لم يُنَح عليه) و(لا تضربوا عليَّ فسطاطاً، ولا تتبعوني بمِجْمَر، وأسرعوا بي؛ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا وُضِعَ الرجُلُ الصالح على سريره قال: قدِّموني قدِّموني، وإذا وُضِعَ الرجُلُ السوءُ على سريره قال: يا ويلَه؟ أين تذهبونَ بي»)!!.

ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فجعلَ يقول: «بُعْدُ المفازة، وقِلَّة الزاد، وعقبة كؤود». ثم أوصىٰ أولادَه بأن يُعطوا دارَه التي في ذي الحُلَيْفة لمواليه، وأن يُحسنوا إليهم، وأن يَبَرُّوهم ويُكْرموهم.

وجاء صباحُ اليوم الأخير، ودخل مروان بن الحكم على أبي هريرة يعودُه، وأقبل عليه يقول له: (شَفَاك الله يا أبا هريرة)، وحَمْلَق أبو هريرة بناظِرَيْه وأدارهما في أعلى، وجعل يقول: (اللهم إني أحبُّ لقاءَك فأحبَّ لقائي).

وخَرَج مروان من عنده، وما هي إلا ساعة حتى كانت النهاية، فرُفِعَت الروحُ المطْمَئنَّة إلى بارئِها الكريم، وودَّع أبو هريرة هذه الحياةَ الفانيةَ ليستقبلَ حياةً خالدةً هانئةً. وسجَّل التاريخ بخطٍّ عريضٍ حَدَثاً كانَ من أبْرَزِ أحْدَاث عام تسع وخمسين للهجرة، سَجَّل التاريخ:

(وفي هذه السنة مات صاحبُ رسولِ الله ﷺ وتلميذُه النجيب أبو هريرة الدَّوْسي اليمانيُّ، بعد حياةٍ حافلةٍ بالعلم والعبادة وصالحِ الأعمال، وبكاهُ الناسُ جميعاً. وحزنوا عليه حزناً كبيراً).

— ٢ —

وسُرْعان ما انتشرَ خبرُ وفاة أبي هريرة في مدينةِ النبيِّ ﷺ وضواحيها، فتَرك الناسُ أعمالَهُم، وهُرِعوا جميعاً إلى منزلِ أبي هريرة بذي الحُلَيفة، وتجشَّموا مشقَّة السير في حرارة الشمس، وحَملوا سريرَه، ومشى الناس أمامَه ووراءه خاشعينَ مُنْصِتينَ، وساروا به بعدَ صلاةِ الظهر حتى وَصَلوا المسجدَ النبويَّ، وكان يتقدَّمُ موكبَ التشييع أصحابُ رسول الله ﷺ، وكبارُ التابعين، وكانَ الصحابيان الجليلان: عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخُدري يمشيانِ إلى جوارِ بعضهما، وكانا يكثِرَانِ من الترحُّمِ عليه.

وصلَّىٰ الناسُ العصرَ، ثم قدَّموا سريرَ أبـي هريرة، فتقدَّم أمير المدينة الوليد بن عُتْبة فصلَّى عليه والناس خلفه صفـوفٌ قد ضـاقَ بهم المكـان وضاقت بهم أفنِيَةُ المسجد، وحمـل أولادُ عثمانَ بن عفان السريـرَ بعد الصَّـلاة وساروا في زحمـة الناس، وهنـاك وارَوْا ذلك الوافدَ الجديد في تلك المقبرة العظيمة التي حَوَتْ طائفـةً من أبرِّ النَّاس وأكرمِهِم على الله تعالى، وأُدخل أبو هـريرة قبـرَه، وسَنَّ النـاسُ عليه التـراب، وودَّعوه بـالحـزن والبكـاء. واستقْبَلَتْ أرواحُ أهلِ البقيع روحاً طيبةً فرِحوا بهَا فَرَحاً كبيراً، وَفَـرِحَت هي الأخرى بهم فَرَحاً عظيماً.

***

في سِجِلّ الخُلود

مضى أبو هريرة إلى ربِّه بعد عُمُرٍ حافلٍ بجلائل الأعمال، وبعد أن جَعَل منه الإسلامُ إنساناً كبيراً، ملأً الدنيا ــ في زمانه وبعد زمانه ــ وشغلَ الناس، وكانَ من قبلُ راعيَ غنم لا يَأْبَهُ له أحد! فما كان أعظمَ ما صنعه الإسلام بهذه الأمة وبهؤلاء الرجال! إنهم لولاه لماتوا وضاعوا ونسِيَهم التاريخ، ولكنه الإسلام الذي به خُلِّدوا وبقيَ ذكرهم.

لقد كانَ أبو هريرة واحداً من نوابغِ الرجال وعظماءِ المسلمين، لقد حدَّد هدفَه منذ البداية، وسارَ في طريق الوصول لهذا الهدف بِجِدٍّ ونشاط، وتحمَّل في سبيله المشقَّات الهائلة، وأخيراً تحقَّق الهدف وَوَصَل إلى الغاية.

لقد جَعَل نُصْبَ عينيه في حياةِ النبيِّ ﷺ أن يكون تلميذاً نجيباً لرسول الله ﷺ، وعالماً فقيهاً بدين الله، فمضى يطلبُ العلمَ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام ويعيه ويحفظه، وتحمَّل من أجلِ

ذلك الجوعَ الشديدَ والفقرَ والفاقَةَ، وأخذ عن رسول الله ﷺ علماً جَمّاً مُبَاركاً.

ولقد جَعَلَ نصب عينيه بعد وفاةِ النبي عليه الصلاة والسلام أن يبلِّغ هذا العلم الذي تعلَّمه، وأن يقضيَ عمره في هذا المجال، ناصِحاً لهذه الأمة، مُبَيِّناً لها أحكام دينها، مطبِّقاً على نفسه ما تعلَّمه، مُقْتَفياً سيرةَ النبيِّ ﷺ في سيرتِه وسلوكِه؛ فعاشَ ينشُرُ العلمَ ويبلِّغُهُ للناس، وتحمَّل من أجل ذلك نَقْدَ النقَّاد، واتِّهام المتهمين، وامتُحن أكثر من مرة وكان من الفائزين. وكان العاملُ الكبير في نجاحِهِ في الحالَيْن: في طلبِ العلم، وفي نشْرِ العلم ـ مع الجِدِّ والاجتهاد ـ الإخلاص للهِ، والصِّدق معه، وطلب مرضاته؛ فقد طلبَ العلمَ لله، وبذله لله، ولقد كانت الدارُ الآخِرَة هي هَمَّه وَمُبْتَغاه، فعاشَ حميداً وماتَ حميداً رحمه الله.

وإذا كان الأمرُ كما يقولون: (ألْسِنَة الخَلْق أقلام الحق)، فَلَكَم كان حظُّ أبي هريرة عظيماً وفوزُه كبيراً، فمنذ أن مضى إلى ربه وقبل ذلك وخِيَار هذه الأمَّة من علمائها وربانيِّها وفقهائها ومحدِّثيها يُثْنون علىٰ هذا الرجل خيراً، ويذكرونه بالذكرِ الجميل.

● يقول سيد السادات وأفضلُ خلق الله محمد رسول الله ﷺ

موجِّهاً الخطاب لأبي هريرة: «لقد ظننتُ أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أولىٰ منك؛ لِما رأيتُ من حِرْصِك على الحديث».

● ويقول طلحة بن عُبيد الله صاحب رسول الله ﷺ: (لا أشكُّ أنَّ أبا هريرة سمع من رسول الله ما لم نسمع).

● ويقول الصحابي الجليل ابن عمر: (أبو هريرة خيرٌ مني، وأعلم بما يحدِّث).

ويقول أيضاً مخاطباً أبا هريرة: (أنتَ كنتَ أَلْزَمَنا لرسول الله ﷺ، وأحفَظَنا لحديثه).

● ويقول الإمام الجليل أبو عبد الله الشافعي: (أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره).

● ويقول أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري: (روى عنه نحوُ الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظَ من روى الحديث في عصره).

● ويقول الإمام الذهبي: (أبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام وأدائه بحروفه... كان من أوعية العلم، مع الجلالة والعبادة والتواضع).

● ويقول الإمام ابن كثير: (كان أبو هريرة من الصِّدْق والحفظ

والديانة والعبادة والزهادة والعمل الصالح، على جانبٍ عظيمٍ. . . وروى عن رسول الله ﷺ الكثيرَ الطيِّب، وكانَ من حُفَّاظ الصحابة).

● ويقول شيخ الإسلام ابن حجر شارح البخاري: (إنَّ أبا هريرة كان من أحفظِ مِن كلِ من يروي الحديث في عصره، ولم يأتِ عن أحدٍ من الصحابة كلِّهم ما جاء عنه).

ويكفي أبا هريرة فَخْراً، ويكفيه ثواباً مُعَجَّلاً ـ إن شاء الله ـ أنَّ اسمَه قد سُجِّل ألوفَ المرَّات بل عَشَرَاتِ الألوف في دواوين الإسلام الكبرى، وأنَّ ذكرَه يجري منذ أربعة عشر قرناً على ألسنة ألوفِ العلماء وطلَّاب العلم؛ جزاءَ ما حفظ لهم من حديث نبيِّهم، وما نَقَلَه لهم من كلماتِه المبارَكة.

وَلَئِنْ أبغَضَهُ قومٌ لهوىً في نفوسهم، ولئِنْ تَنَقَّصَهُ بعضُ مرضىٰ القلوب، وصِغَار النفوس، فما يضيره هذا، فهو الطَّوْد الشَّامخ، وهم الأقزام الذين يحاولون المستحيل:

كناطحٍ صَخْرةً يوماً لِيُوهِنَها
فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعِلُ

وأينَ هذا البُغْضُ وهذا التنقُّص من حبِّ ملايين المسلمين له، وإجْمَاع الأمَّة على جلالتِه وفخامَتِه؟!.

ولعلَّ في هذا البُغْضِ والتنقُّصِ زيادةَ أجرٍ لهذا الحَبْر الجليل ينضاف لعمله وهو في عالم البرزخ.

فرحمَكَ اللَّهُ أبا هريرةَ رحمةً واسعةً، ورضيَ عنك، وغفر لك ما تقدَّم من ذنبك، ونضَّر وجهك:

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾.

***

المـــراجع

* الإصابة في تمييز الصحابة، الإمام ابن حجر العسقلاني.
* البداية والنهاية، الإمام ابن كثير.
* حياة الصحابة، الشيخ الداعية محمد يوسف الكاندهلوي.
* دفاع عن أبي هريرة، الأستاذ عبد المنعم صالح العلي.
* سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي.
* صحيح البخاري، الإمام البخاري.
* صحيح مسلم، الإمام مسلم.
* المسند، للإمام أحمد بن حنبل.



الفهـرس

* * *



تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم: دمشق: ص ب: ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية: بيروت: ص ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير

جدة: ٢١٤٦١ ص ب: ٢٨٩٥